مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها

الموقع الإلكتروني: https://uqu.edu.sa/jll

أمكنة الشّعر: أفضية الألفة والوحشة في نماذج شعر المقلّين

Poetry Places: Spaces of Intimacy and Loneliness in Examples of the Minor Poetry

د. علي بن جمعة البوجديديّ*[1]، د. نزهة محمد خلفاويّ[2]

[1]المعهد العالي للعلوم الإنسانيّة بمدنين، مخبر السّرديّات والدّراسات البينيّة بكليّة الآداب بمنّوبة، جامعة قابس، الجمهوريّة التّونسيّة

[2]مركز البحث العلميّ والتّقنيّ لتطوير اللّغة العربيّة، وحدة البحث تلمسان، الجزائر

Dr. Ali Boujdidi[1*], Dr. Nouzha Khalfaoui[2]

[1]Higher Institute of Human Sciences in Medenine, Faculty of Arts, University of Gabes, Republic of Tunisia

[2]Scientific and Technical Research Centre for Arabic Language Development, Tlemcen Research Unit, Algeria

الملخص: إنّ المتأمّل في كتب المجاميع الشّعريّة والمختارات الحديثة التي تنخّل أصحابها شعر العرب القديم، يألَفُ فيها حضورا لافتا، لنصوص الهامش الذي صار متنًا، ويجدها ضاجّة بشعر مسكون بالمكان والموضِع مَهُوس بالفضاء، معبِّر عن الألفة والوحشة في ذات الآن. ولهذا تطلّب مشروع هذا البحث منّا تقصّيا للأفضية ومضارب نشأة الشّعر في الجزيرة العربيّة، ونظرا في نصوص همّشت من الدّرس الأدبيّ واطّرحتها الذّائقة الانتقائيّة في مَهْمَه المنسيّ، وتلك غاية تنسجم مع عودة الفضاء مشغلا لا يمسّ الشّعر وحده، بلْ يُنيخ بكلكله على واقع الإنسانيّة التي رأتْ في المكان عمقها ومصدر هويّتها والضّامن لمستقبلها. ووفق هذا الخيط النّاظم بانَ لنا أنّ الشّعر العربيّ أضحَى أبعدَ غورا وأشدّ خصوصيّة من الذّائقة الشّعريّة الرّسميّة، ومن الذّاكرة الجماعيّة الصّارمة ذات الجماليّة المنمَّطة المتكلِّسة. ولما تأمّلنا أمكنة الألفة وأمكنة الوحشة، بان لنا أنّها أمكنة قامعة عنيفة معرقلة كابوسيّة، حدَّت من رحلة الشّاعر في المكان، وجعلته تائهًا فيه بلاَ دليل. وعلمنا أنّ المكان قد لعب دورا حاسما في حياة الشّاعر العربيّ القديم، وكان عاملا أساسيّا في ترسيخ وجوده الإنسانيّ، وانبرى سُؤالا حارقا يخترق كيان العربيّ بأبعاده الجغرافيّة والثّقافيّة ولا يزال، وهو في الشّعريّة العربيّة مولِّدها وراسم استعارتها وناظِم أخيلتها ورحِمُ المعنى فيها، مادام الشّعر هو تُرجمان حال الإنسان العربيّ على مرّ الأزمان، وحامِلُ قيم العروبة وأمجاد العرب كما يرى غير واحد من الدّارسين والنقّاد.

الكلمات المفتاحية: مكان، فضاء، حيّز، بيداء، صحراء، دمن، ديار، ألفة، وحشة.

Abstract: Reflecting on the books of poetry collections and modern anthologies of ancient Arabs' poetry, one can notice a striking presence of marginalized texts that have become nowadays valuable texts. These texts are buzzing with poetry haunted by place and space, expressing love, sadness, and rebellion at the same time. This research project, hence, comes as an attempt to explore the spaces and origins of poetry in the Arabian peninsula, and shed light on those marginalized texts which had not undergone literary analysis, nor had they been quoted from before. The issue of space has not only been the concern of poetry, but it has also infiltrated the real life of humankind who see in space their roots, identity and future. Arabic poetry has, thus, become deeper and more specific than the formal poetic taste, and from the rigorous collective memory which is characterized by standardized rigid aesthetics. Scrutinizing and contemplating the places of familiarity and the places of hybridization, we realized that these places were oppressive, violent, hampering and nightmare-like, obstructing the poet's journey into the space and making him helplessly lost. We learned that the place played a crucial role in the life of the ancient Arab poet and was an essential factor in the consolidation of his human existence. Place has become a hot issue pervading the life of Arabs at both the geographical and cultural levels. Place is the generator of Arabic poetry, its metaphor creator, its structure builder and the womb of its meaning as long as poetry reflects the Arabs' condition over time and bears their values and glories.

Keywords: Lieux, Place, Space, Place, Desert, Country, Home, Familiarity, Loneliness, Poetry.

Doi: https://doi.org/10.54940/ll45597942

1658-8126 / © 2024 by the Authors.

Published by ***J. Umm Al-Qura Univ. Lang. Sci. and Lit.***

*المؤلف المراسل: د. علي بن جمعة البوجديديّ

البريد الالكتروني الرسمي: ali.boujdidi@gmail.com

التّمهيد:

إنّ المتأمّل في كتب المجاميع الشّعريّة والمختارات الحديثة التي تنخّل أصحابها شعر العرب القديم، يألَفُ فيها حضورا لافتا لنصوص الهامش الذي صار متنًا، ويجدها ضاجّة بشعر مسكون بالمكان والحيّز، والموضِع (Lieux, Place) مَهُوس بالفضـــاء (Espace, Space)، معبِّر عن الألفة والوِحْشة.

ولهذا تطلّب مشروع هذا البحث تأمّلاً عميقا في مدوّنة النّصوص الشّعريّة العربيّة القديمة، واستتبع منّا تَقصّيًا للأفضية ومضارب نشأة الشّعر في الجزيرة العربيّة، ونَظرًا في نصوصٍ هُمِّشت من الدّرس الأدبيّ واستُبعِدت من التّناول النقديّ طويلا واطّرحتها الذّائقة الانتقائيّة في مَهْمَه المنســـيّ، وتلك غاية تنسِجم مع روح العصر، وتتواءَم مع عودة الفضاء مشغلا لا يمسّ الشّعر وحده ولا الإبداع الفنيّ وحسب، بلْ يُنيخ بكلكله على واقع الإنسانيّة التي رأت في المكان عُمقها ومصدر هويّتها والضّامن لمستقبلها. وقد اخترنا أنْ ننظر في أشعار المقلّين أو المغمورين، دون المشهورين من الشّعراء المعروفين، وإنْ أحلنا في بحثنا على بعضهم تمثيلا ومقارنة، وذلك لأنّ تلك الأشعار لا تزال نصوصا بكرًا متفرّقة شتاتا بين كتب تاريخ الأدب والأخبار، مبثوثة لم تُجمع في مدوّنة واحدة يمكن اعتمادها في الدّرس وتناولها بالنّقد على الوجه الذي مكّنتنا منه مدوّنتي أدونيس وإبراهيم النجّار[1]. ومن الجدير بالقول أنّ مصـــطلح الشّـــعر المقلّ ومفهوم المقلّين المحكِمينَ كان حاضـــرا في التّنظير العربيّ النقديّ القديم. فقد خصّـــص على ســـبيل المثال ابن رشـــيق (توفّي 463 هـ) بابا للمقلّين من الشّعراء المغلوبين[2]. ورأى أنّ الشّاعر المقلّ هو «قليل الشّعر في أيدي النّاس على قِدم ذكره وعِظَم شهرته طول عمره»[3]. والرّأي عندنا أنّ أشـــعار المقلّين تعدّ مادّة صـــالحة بين أيدي الدّارســـين، تُساعد في نفض الغبار عن الأدب المهمّش، والكشف عن مقاصده، وتُبين عن اهتمامات الفرد العربيّ داخل المجتمع المدنيّ الجديد. ووفق هذا الخيط النّاظم بانَ لنا أنّ الشّـعر العربيّ الذي ضـمَّته تلك المدوّنات أضـحَى أبعدَ غورا وأشـدّ خصـوصـيّة من الذّائقة الشّـعريّة الرّسميّة، ومن الذّاكرة الجماعيّة الصّارمة ذات الجماليّة المنمَّطة المتكلّسة. إنّ الشّعر الذي سنُوليه اهتمامنا شعر «لا نقرأ فيه السّلطة، بل الإنسان، ولا نرَى فيه المؤسَّسة، بل الفرد، ولا السّياسة، بل الحريّة، ولا القبيلة، بل التمرّد، ولا بلاغة المتَّبع، بل تجربة المبدع»[4].

ولئنْ عُدنا إلى تلك المنتخبات من الشّـــعر العربيّ القديم الذي عُني بثيمة المكان، فذلك لأنّه في عُرفنا لا يزال شـــعرا حيّا يحتفِظ بحرارته وغِناه، فيه نكتشـف تردّد المكان بين الدّاخل والخارج والانفتاح والانغلاق أو نوَسَـانِه بين المكان الأليف والموحش القَفْر، وبين فضاء الهويّة وفضاء الانبتات، بين أمكنة القيد والغلّ وأمكنة الحريّة والانعتاق. وقد وضُـــح لنا من خلال استقصـاء مدوّنة المختارات الشّـاسعة تلك أنّ الفضـاء العربيّ الذي تجلوه أشـعارهم، إنّما يقوم على سـيمياء الحدود والمركز والهامش، مشـكِّلا بذلك على الدّوام حيّزا محايِثا للعالم. إنّه على حدّ استعارة غاستون باشلار (توفّي 1962 م) في جماليّات المكان «ركْننا في العالم وكونُنا الأوّل [..] قبل أنْ يُقذَف بالإنســـان في العالم»[5]، فيه تنتظم الكائنات وتتموضـعُ الأشـياء والأفعال، ولهذا عُدَّ معيارًا لقيس درجة الوعي، ولتبيّن العلائق والتّراتبيّات الوُجوديّة والاجتماعيّة والثّقافيّة. ومن هنا لعب المكان دورًا حاسمًا في حياة الشّـاعر العربيّ القديم، وكان عاملا أسـاسـيّا في ترسـيخ وجوده الإنسـانيّ، وشـكَّل بُعدا جوهريّا من أبعاد كينونته، وانبرى على هذا السّـمت سُـؤالا حارقا يخترق كيان العربيّ بأبعاده الجغرافيّة والثّقافيّة ولا يزال، وهو في الشّعريّة العربيّة مولِّدها وراسـم اسـتعاراتها وناظِم أخيلتها ورحِمُ المعنى فيها، لذا فهو أسٌّ في فهْم الشّعر العربيّ القديم بأسره، وفي ترسّم الهويّة العربيّة مادام الشّعر هو تُرجمان حال الإنسان العربيّ على مرّ الأزمان، وحامِلُ قيم العروبة وأمجاد العرب كما يرى غير واحد من الدّارسـين والنقّاد. وأمّا الأفضـية التي بدَتْ نافذةَ الحضـــور من خلال ما تأمّلناه من مدوّنة المقلّين، فمنها أمكنة الألفة والاجتمـاع والأنس وتقـابلهـا أمكنـة الوِحشـــة والخلوة والانفراد والإقفـار والخوف وعـدم الأنس، والفجِيعـة والـدّمـار، أمكنـةٌ قـامعـة عنيفـة معرقلـة كابوسيّة، حدَّت من رحلة الشّاعر في المكان، وجعلته تائهًا فيها بلاَ دليل، وحوَّلته داخلها «كئيبًا، يعتزلُ، ينتظر، يتململُ، يُغامر، ويتمنَّى أنْ يقهَر الزَّمن والموت والتّغيُّر»[6].

فما مفهوم المكان؟ وما علاقته بالفضـــاء؟ وكيف سَمَّت العربيّة الأمكنة ونحتتْ معالمها وشـــقَّقت من أفنان اللّغة مُعجما لها ثريّا دالاً على ســـكن العربيّ في الفضاء على نحو وجوديّ عميق؟

في سُؤال الأمكنة والأفضية:

لابدّ أنْ ندقّق في مصطلحيْن متداوليْن بتسامح عفويّ هما المكان والفضاء، وأنْ نميز بينهما لغة واصـــطلاحًا في اللسّـــان العربيّ وفي الثّقافات الغربيّة

---

(1) اعتمدنا في عملنا على مدوّنتين من تلك المجاميع الشّـــعريّة، وهي: النجّار، إبراهيم. مجمع الذّاكرة أو شـعراء عبّاسـيّون منسـيّون. طبعة، 1، در الغرب الإسـلاميّ، بيروت، 1997. (6 أجزاء). ومدوّنة: أدونيس. ديوان الشّـــعر العربيّ، طبعة 1، دار السّـــاقي، بيروت، لندن، 2010. (4 أجزاء).

(2) ابن رشـيق. العمدة في محاسـن الشّـعر وآدابه. تحقيق: قرقزان محمّد، طبعة 1، دار المعرفة، بيروت، 1988. ج 1، «باب المقلّين من الشّـعراء والمغلوبين». ص ص 216، 225.

(3) ابن رشيق. نفسه. ص 217.

(4) أدونيس. ديوان الشّعر العربيّ، ج 1، ص 23.

(5) يُراجع في ذلك:

Bachelard, Gaston. La poétique de l’espace. Presses Universitaires de France, Paris, 1961.

أو في التّرجمة العربيّة: باشلار، غاستون. جماليّات المكان. ترجمة: هلسا غالب، طبعة 2، المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، 1984. ص 36.

(6) أدونيس. ديوان الشّعر العربيّ، ج 1، ص 23.

معجميّا وفلسفيّا، ذلك أنّ مفهوم الفضاء مفهوم غائم «أنهكته حالة الالتباس القُصوى»[7]. وإذا ما عدنا إلى المعاجم العربيّة، ألفينا المكان يُستعمل فيها مُرادفا للموضع[8] والحيّز[9]والأيْنِ[10] والمحلِّ[11] والخلاء[12].

وجاء في معجم الكفويّ (توفّي 1094م) في تعريف لفظة المكان: «المكان لغة: الحاوِي للشّيء المستقرّ كمقعد الإنسان من الأرض، وموضِع قيامه وإضْجَاعه»[13]. فالمكان عنده «أخصّ من الحيّز»[14]. وتسمّى الأرض التي تحلّ بها القبيلة «منزلاً لها، ومنازل لأبنائها [..] فتصبح الأرض وطنا لهم ودار إقامة»[15].

وأمّا في المصادر الفلسفيّة، فقد رأى أرسطو (توفّي 322 ق. م) مبكّرا أنّ المكان موجود ما دُمنا نشغله ونتحيّز فيه، وأنّه يمكن إدراكه ما دُمنا نتحرّك وننتقل به. يتحدّد وجود المكان إذنْ من خلال الحركة، لأنّه ثابت لا ينتقل بانتقال المتحرّك. ولتأكيد هذا القانون اعتقد جازما أنّ «مكان شيْء ما ليس هو جزْءا وعنصرا من الشّيء نفسه، بلْ إنّه يحوِي الشّيء الذي هو له مكان»[16].

ولم يشذّ الفلاسفة العرب الأوائل عن هذا التصوّر ولم يجانبوه بالكليّة، لأنّهم شدّدوا أيضا على أنّ الفضاء هو مكان التّعبير عن كلّ «ما يحلّ فيه الشّيء أو ما يحوِي ذلك الشّيءَ ويميّزه ويحدّه ويفصله عن باقي الأشياء»[17]. وتبعا لذلك صار المكان في عُرفهم «بُعدا موهوما يشغله الجسم بنفوذه فيه»[18]، وله علاقة جوهريّة بالزّمان، لأنّ سائر أوجه الحياة الاجتماعيّة، إنّما «تقعُ في زمان ومكان»[19]. إنّه عبارة عن «الزّمن مكثّفا»[20]. وهو الذي يمكّننا من النّظر إلى المكان باعتباره «النّقطة من المجال الفيزيائيّ الذي يتموْضَع فيه الإنسان»[21]. ويُعرَّف تبعا لذلك بأبعاده (فوق، تحت، بيْن، يمين، شمال، جنوب، غرب، شرق...) وبالمسافات (بعيد، قريب)، بينما الفضاء على خلاف ذلك يُراد به «المكان الواسع الذي يجمع الأشياء»[22]، وميزته الأساسيّة كونه فضاء حواريّا، تلتقي فيه أو تتعارض في أحنائه العناصر وتتفاعل.

ووفق هذا التصوّر يتّضح أنّ الكون لا يُعدُّ فضاءً فزيائيّا يُوجد خارج الذّوات، وأنّ الذّات البشريّة غير مستقلّة عمّا استقرّ في العُرف بالكون الحيويّ، هذا الكون الذي تسبحُ داخله الكائنات، والذي لا يكون لحياتها خارج حدوده أيّ معنى. وقد شدّد إمانويل كانط (Immanuel Kant) (توفّي 1804 م) على أنّه لا يمكننا أنْ نُعالج مسألة المكان إلاّ من وجهة نظر الإنسان، بلْ لا معنى للأشياء داخله «إلاّ من حيث تبدو لنا، أيْ من حيث هي موضوعات للحساسيّة»[23]. والمكان عنده هو الذي يتضمّن جميع الأشياء، وهو شكل تجربتنا الخارجيّة. ولقد زاد مؤسِّس الظّاهراتيّة أو الفينومينولوجيا (Phénoménologie)[24] إدموند هوسرل (Edmund Husserl) (توفّي 1938 م) مفهوم المكان

---

(7) نجمي، حسن. شعريّة الفضاء: المتخيّل والهويّة في الرّواية العربيّة، طبعة 1، المركز الثّقافيّ العربيّ، الدّار البيضاء، بيروت، 2000 ، ص 6.

(8) جاء في لسان العرب: «المكانُ: الموضع». راجع في ذلك: ابن منظور. لسان العرب. نسّقه وعلّق عليه ووضع فهارسه: شيري علي، طبعة 1، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، 1988. مادّة (م. ك. ن).

(9) جاء في لسان العرب: «الحيّز: الجهة والنّاحية». راجع في ذلك: ابن منظور. نفسه. مادّة (ح. ي. ز).

(10) جاء في لسان العرب: «الأيْن: مكان حصول الشّيء». راجع في ذلك: ابن منظور. نفسه. مادّة (ء. ي. ن).

(11) جاء في لسان العرب: «المحلّ: المنزل». راجع في ذلك: ابن منظور. نفسه. مادّة (م. ح. ل).

(12) جاء في لسان العرب: «الخلاءُ من الأمكنة: القفر». راجع في ذلك: ابن منظور. نفسه. مادّة (خ. ل. ي).

(13) الكفويّ، أبو البقاء أيّوب بن موسى الحُسينيّ. معجم في المصطلحات والفروق اللّغويّة، قابله على نسخة خطيّة وأعدّه للطّبع ووضع فهارسه: درويش عدنان، محمّد المصريّ، طبعة 2، مؤسّسة الرّسالة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، 1998. ص 826.

(14) الكفويّ، معجم في المصطلحات والفروق اللّغويّة، ص 826.

(15) حسن، حسين الحاج، حضارة العرب في عصر الجاهليّة، طبعة 1، المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، 1989. ص 70.

(16) أرسطو، الفيزياء: السّماع الطّبيعيّ، ترجمة: قنيني عبد القادر، طبعة 1، أفريقيا الشّرق، الدّار البيضاء، 1998. ص 109.

(17) العبيديّ، حسن مجيد، نظريّة المكان في فلسفة ابن سينا، مراجعة وتقديم: الأعسم عبد الأمير، طبعة 1، دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة، بغداد، 1987. ص 19.

(18) الكفويّ، أبو البقاء أيّوب بن موسى الحُسينيّ، ص 826.

(19) آوثوايت، وليم، قاموس بلاكويل للفكر الاجتماعيّ الحديث، ترجمة: معهد دراسات عراقيّة، إشراف: عبد الجبّار فالح، طبعة 1، هيئة البحرين للثّقافة والآثار، المنامة، 2022. فصل: «مكان»، ص 884.

(20) الجيار، مدحت، جماليّات المكان في مسرح صلاح عبد الصبّور، مجلّة عيون المقالات، الدّار البيضاء، العدد 8، أفريل 1987، ص 21.

(21) بورديو، بيير، بؤس العالم: رغبة الإصلاح، ترجمة: صبح محمّد، مراجعة وتقديم: درّاج فيصل، طبعة 1، دار كنعان للدّراسات والنّشر والخدمات الإعلاميّة، دمشق، 2010، ج1، ص 240.

(22) راجع في هذا الصّدد:

Dictionnaire Hachette Encyclopédique, Atlas Mondial, Paris, 1994. p 555.

(23) كنط، عمانوئيل، نقد العقل المحض، ترجمة: وهبة موسى، طبعة 1، مركز الإنماء القوميّ، بيروت، 2013، ص 63.

(24) الظّاهراتيّة أو الفينومينولوجيا: مدرسة فلسفيّة تنبني على مفهوم الخبرة الحدسيّة للظّواهر، وتسعى إلى تحليلها على أساس معرفتنا بها. غير أنّها لا تدّعي التوصّل إلى حقيقة مطلقة مجرّدة سواء في الميتافيزيقا أو في العلم، بل تراهن على فهم نمط حضور الإنسان في العالم. ومن أعلام الفينومينولوجيا إدموند هوسرل وهايدغر وسارتر وموريس ميرلو بونتي وبول ريكور. وقد أكّد هؤلاء على أنّه لكيْ تكون فينومينولوجيًّا لا يكفي أن تفتح الأعين، ولكن يجب أن تُمارس نوعا من التّدريب. ينبغي أن ندرّب نظرنا، أن نجعله حادًّا أو بصيرا، أن نضع بين قوسين انشغالاتنا الرّاهنة حتّى نُبرز الأشياء في حقيقتها القصوى. فغاية الفينومينولوجيا إذنْ أن ندرك من جديد حقيقة الأشياء، وأن نرجع إلى هذا العالم الذي نحيا فيه، لا أنْ نفرّ نحو عالم آخر، أشدّ تعاليا. راجع في ذلك: خوري، أنطوان، مدخل إلى الفلسفة الظّاهراتيّة، طبعة 1، دار التّنوير للطّباعة والنّشر، بيروت، 1984، ص ص 35- 71.

جلاء حين ربطه بالوعي الباطنيّ وبالتّوصـــيف الفينوميلوجيّ له[25]. وأمّا مارتن هايدغر (Martin Heidegger) (توفّي 1976 م)، فقد عمّق مفهوم المكان بما اجترحه من مفاهيم جديدة، ونظر إليه في علاقته بالكينونة والزّمـان، وذهـب إلى أنّ «الكـائن داخـل العـالم هو بوجـه مـا داخـل المكان»[26]. بل إنّ «مكانيّته، إنّما ســتكون في تواشـــج أنطولوجيّ مع العالم»[27]، وعلى هذا النّحو انبرى «المكان مقوّما للعالم»[28]. لقد حرص هايدغر حين نقل مفهوم البُعد والقرب من خاصـيّته الماديّة في الأشـياء إلى طابعه الوجدانيّ، إلى اعتبار المكانيّة ذات بُعد وُجدانيّ، تتأسّـــس على مفـاهيم إبعـاد البُعد وإقامة القرب. ولأنّ البعد طابع وجدانيّ فينا، فنحن وحدنا نبعُد ونقترِب من كائن ما. وقد قاده هذا التصـــوّر إلى التّمييز بين ثلاثة أنواع من المكانيّة: «مكانيّة القائم أمامنا، الذي له موضـــع ومســـافة داخل مكان متجانس، ومكانيّة الكائن تحت اليد الذي له موقع داخل جهة ما في حضـــن جملة ما، ومكانيّة الدّازين[29]، الذي يتميّز برفع البعد والتوجّه نحو الخارج»[30].

وبهذه الإلمعات الفلســفيّة يتبدّى لنا ســؤال الفضـــاء منفتحا على الوجود بأسـره. هو سُـؤال «إشـكاليّ ملتصـق بوعينا الثّقافيّ والاجتماعيّ والجماليّ وبنســـيجنا السّـــيكولوجيّ والمعرفيّ والإيديولوجيّ»[31]. ولهذا لم يُنظرْ إلى الفضـــاء باعتباره أمكنة تدور فيها الوقائع والأحداث، أو تتمركز حولها الفاعليّة الشّـــعريّة، بل نُظِر إليه باعتباره «ذاكرة وهويّةً وُجودٍ»[32]. وهو ما حتّم علينا أنْ نقرِن تاريخ الإنســـان بتاريخ «تفاعلاته مع الفضـــاء»[33]، مادام الفضـــاء يلعب دورا حيويّا في القراءة والتّفســـير على نحو ما نبّه إليه جون ريمي[34]. وبديهيّ الإقرار بأنّ الذّات البشريّة غير مستقلّة عمّا صـار يُعرف بالكون الحيويّ، ومـا يُـدعَى بمفـهوم الفضـــائيّـة (La Spatialité)[35]، التي لم تعدْ ترى الكون «فضـــاءً فزيائيّا يُوجد خارج الذّوات، ولكنّه الكون الذي تســـبحُ داخله هذه الكائنات، والذي يمكن خـارج حـدوده أنْ لا تحملَ الحياة ولاَ تمظهراتها معنى»[36]. ومن لطـائف القول ما تتبّعناه في شـــعر دُريد بن الصـــمّة (توفّي نحو 630 م)[37]، حين ربط مفهوم الفضـاء بصـورة الأرض، وهي تتزيّن في مأتم. صـورة بليغة تجعل من الأرض فراغا موحشـا وفضـاء مترامياً واسـعًا. يقول دُريد بن الصـمّة في هذا المعنى [من الطّويل][38]:

إِذَا هَبَطَ الأَرْضَ الفَضَاءَ تَزَيَّنَتْ لِرُؤْيَتِـــهِ كَالمـــأْتَمِ المُتَبَـــــدِّدِ

انبرى الفضـــاءُ وفق هذا التّصـــور الجديد وعاء للتّفاعلات الثّقافيّة، يخترق المكان ويظهر مجازيّا في الفضـــاء النصّـــي، ويحضـــر بقوّة في جلّ المعلّقات والحوليّات وفي كبار القصـــائد، فإذا بالشّـــاعر يتقصَّـــدُ ذكر أسماء الأماكن والمضـارب، كما لو أنّها تعويذة ضـدّ الفناء، وتميمة ضـدّ الضّـياع والتشـتّت والانبتات، وترســـيخ لذكريات الماضـــي بحلوه ومُرّه. وليس غريبا أنْ يخترق الفضـاء حياة الإنسـان، ويسـتبدّ بها، على سَمتٍ يغدو الكائن البشـريُّ فيه غير منفصـل عن فضـائه كما يقول جورج ماتوري[39]. هكذا تبدَّى لنا أنّ سـبر أغوار المكان وتأمّل نظرة العربيّ القديم إلى الفضـاء، لا تتأتّى إلاّ حين نتدبّر حضـوره في مدوّنة المنتخبات التي أعلنا عنها، ونتتبّع في الآن نفســه مختلف النّوى المعجميّة القريبة الجوار بالمكان والفضـاء، علّنا نسـتشـفّ ما يحفّ بها من دلالات، تمكّن على نحو دقيق من ترسُّـــم صـــورة عن سُـــؤال الأمكنة والأفضـية في وجدان العربيّ وفي مخياله الجمعيّ. وأولى تلك الصّـور صـورة الصّـحراء والبيد والمهامه القفر. فكيف تمثّلها الشّـاعر العربيّ القديم وكتبها بالاستعارة والمجاز؟

في الصّحراء أو متاهة الامتداد:

يحتلّ وصـــف الصّـــحراء حيّزا كبيرا في الشّـــعر العربيّ القديم، وتحفل عيون القصـــائد بصـــور البِيد والمتاهة القفر. وللصّـــحراء أسماء عديدة شـــقّقها

(25) هوسرل، إدموند، فكرة الفينومينولوجيا، ترجمة: إنقزو فتحي، طبعة 1، المنظّمة العربيّة للتّرجمة، بيروت، 2007، ص ص 77- 91.

(26) هيدغر، مارتن، الكينونة والزّمان، ترجمة وتقديم وتعليق: المســـكيني فتحي، مراجعة: المصدّق إسماعيل، طبعة 1، دار الكتاب الجديد المتّحدة، بيروت، 2012، ص 210.

(27) هيدغر، مارتن، الكينونة والزّمان، ص 210.

(28) هيدغر، مارتن، الكينونة والزّمان، ص 210.

(29) الدّازين (Dasein) أو كينونة الهُناك (الوجود): مفهوم بلوره هيدغر، وهو يعني الوجود الرّاسـخ والمسـتمرّ والمتجدّد. ويُراد به ذاك الكائن الذي يتميّز بطريقة كينونة تجعله يسـأل عن معنى الكينونة. إنّه كائن من شـأنه أن يكون على طريقة الوجود. وهو إشـارة صوريّة إلى طريقة كينونة خاصّة بكائن مخصوص. راجع: هيدغر، مارتن، هيدغر، مارتن، الكينونة والزّمان، هامش ص 64.

(30) هيدغر، مارتن، الكينونة والزّمان، هامش ص 216.

(31) نجمي، حسن، شعريّة الفضاء، ص 12. وإلى هذا ذهب هنري لوفافر. راجع كتابه:
Lefebvre, Henri. La production de l’espace. Ed Antropos, Paris,1986

(32) نجمي، حسن، شعريّة الفضاء، ص 12.

(33) نجمي، حسن، شعريّة الفضاء، ص 32.

(34) راجع في هذا الصّدد مقاله:
Remy, Jean. «Espace et théorie sociologique». Recherches Sociologiques, Vol VI, N°55, Novembre 1975.

(35) يعرّف معجم لاروس الفرنسيّ الفضائيّة بكونها السّمة التي تميّز ما يجري في الفضاء أو ينتظم داخله:
Caractère de ce qui est dans l'espace ou s'organise dans l'espace.

(36) لوتمان، يوري. سـيميماء الكون. ترجمة: نوســي عبد المجيد، طبعة 1، المركز الثّقافيّ العربيّ، الدّار البيضاء، بيروت، 2011. ص 7.

(37) دُريْد بن الصمّة الجشميّ البكريّ: من هوازن. شجاع من الشّعراء الفرسان المعمّرين في الجاهليّة. كان سيّد بني جشم وفارسهم وقائدهم. غزا نحو مئة غزوة لم يهزم في واحدة منها. عاش حتّى سـقط حاجباه عن عينيه. أدرك الإسـلام، ولم يسـلم، فقتل على دين الجاهليّة يوم حنين.

(38) أدونيس، ديوان الشّعر العربيّ، ج 1، ص 281.

(39) راجع في هذا الصّدد مقاله:
Matoré, Georges. L’espace Humain. Ed La Colombe, Paris, 1962. p 37.

الاستعمال وأذكاها، فمنها (التّنوفة)، وهي الصّحراء الواسعة المقفرة الجرداء المهلكة، ومنها (المَهْمَهُ) وهي الفلاة التي لا ماء بها ولا أنِيس فيها. ومنها (الرَّضْـــراض) الكثيرة الحصـــى. ومنها (الملس) التي اســـتوتْ وخلتْ من الشّجر. صور كثيرة ومجازات كثيفة الدّلالة ينحتها أبو الشّيص (توفّي 196 هـ)[40] حين يقول [من الكامل][41]:

يَـرْمِيـــنَ بالمـرْوِ[42] الطَّـرِيقَ وَتَـــارَةً   يَحْـذِفْنَ وَجْـهَ الأَرْضِ بالرَّضْـــرَاضِ[43]
قَطَـعُوا إِلَيْـكَ رِيَـاضَ كُـلِّ تَنُـوفَةٍ[44]   وَمَهَـامِهٍ[45] مُلْسٍ[46] المتُونِ عِـرَاضِ[47]

ومن أسماء الصّحراء الأخرى في الشّعر العربيّ القديم المهامه البيد، والفِجاج المقفرة. أسماء وظّفها الشّاعر عليّ بن بسّام (توفّي في حدود 302 هـ)[48] ليَسِم بها الأمكنة القصيّة ويرسم بدوالها الأفضية الخطرة الوعرة تزيدها تعقيدا صورة الدّليل الأعمى كثير الرُّقاد. يقول [من الخفيف][49]:

وَامْضِ فِـي غَيْرِ صُـحْبَةِ اللهِ مَـا عِشْـ   ـتَ مُلَقًّى مِـنْ كُـلِّ فَـجٍّ وَوَادِ
يَتَخَـطَّى بِـــكَ المهَــــــامِه وَالبِيــ   ـدَ[50] دَلِيلٌ أَعْمَى كَثِيرُ الرُّقَادِ

واضـح إذنْ أنّ فضـاء الصّـحراء، هو فضـاء التعدّد الدّلاليّ، والنّواة القابلة للتوسّـع باسـتمرار، الكاشــف عن وفرة المعاني والدّوال الملتبِسـة. وله من خلال النّصـوص التي أجلنا النّظر فيها وجهان: «وجهٌ يجذِب، ففي المكان وحده ترتسِم تحقّقات الفروسيّة وأبعاد الفارس. ووجهٌ يُخيف، إذْ من المكان أيضـا تأتي مفاجآت السّقوط»[51]. إنّه فضـاء الحريّة والانطلاق، ولكنّه في الآن ذاته فضــاء التغيّر والغياب، ومكْمَن المخاوِف، وموضــع السّــقوط والمفاجآت. والحقيقة أنّ الصّـحراء تحضـر في الأدبيّات القديمة قرينة الخلاء «والحاجز»[52]، والأرض الواســعة القَفْر، ومنْ يســلكها ولا يكون خبيرا بوعثها، قد يموت فيها «ضُرًّا وعطشـا»[53]. إنّها أرض نُدرة الماء والجفاف، ومنشـأ أيّام العرب الكثيرة. ولعلّ هذه الوفرة في التّســمية تعكس مزيدا من «السّيطرة على الصّحراء واستئناسها»[54].

بيد أنّ الصّـحراء أيضـا مكان جاذِب فيه يُظهر الشّـاعر فُتوّته، ويتغنَّى من خلالها بفروســيّته. إنّها المكان المتاه، تاه فيه الشّــاعر الصّــعلوك ومادَ في بيدائها مُجابها المخاطر ومُلاقٍ الأهوال، علّه يكون سيّد مصيره، وعلّه يحقِّق قيمًا بديلة لم يجدْ لها مكانا في متصـــوّرات أهله وبني عشـــيرته. وفي بيدائه تلك، كان اللّيل حاضــرا يأسُــره ويشــدُّه إلى الأمكنة المتعدِّدة، حتّى انبرى «عشــيرَ الوَتَـد والخيمـة والقِـدْر والرّبع، صـــديقَ الرّيح والشَّـــمس والمسافات»[55]. على هذا السّمت صارت علاقة الشّاعر بالصّحراء علاقة مُربكة، ولكنّها في جوهرها صورة من صـور «كفاح البداوة العربيّة بشـكل عام للتّأقلم مع وحشــيّة الصّــحراء وطبيعتها القاحلة»[56]. وقد عبّر امرئ القيس (توفّي 534م) عن المكان القَفر يعوي به الذّئب عواء الخليع المعيَّل. لقد قصـد الشّـاعر أرضـا مُذْئِبة كثيرة الوحوش ذات مخاوف ومفاوز. يقول امرئ القيس في هذا المعنى [من الطّويل][57]:

وَوَادٍ كَجَوْفِ العَيْرِ قَفْرٍ قَطَعْتُهُ   بِهِ الذِّئْبُ يَعْوِي كَالخَلِيعِ المعَيَّلِ[58]

لقد طبعتْ الصّـــحراء على نحو ما الشّــــاعر العربيّ، فانبرى مثلها مطلقا ونسبيّا، بسيطا ومعقّدا، ثابتا أو متحرّكا ينهار كالرّمال. وفي الصّحراء وجدَ الشّعراء الصّعاليك والشّعراء اللّصوص والغاضبون بعامّة ضالتّهم، وجدُوا فيها فضــــاء الوِحشــــة والأنس معا. ولما كان الجاهليّ، كما يرى أدونيس «عدوّ الوُجود الثّابت: لا يُحِسّ بوجوده إلاّ لحظة يرفض هذا الوُجود، أيْ لحظة المغامرة»[59]، انتهى إلى تأكيد روح التمرّد والخروج في ســـعي منه محموم إلى ارتياد ذُرَى أفضـــية جديدة «تخفِّف عنه وطأة العالم أو تتلاشَى»[60].

وفي وحشــة الأفضــية وفي لجِّ مغامراته تلك تبادل الشّـاعر والحيوان سُـكْنَى المكان، فعجَّت القصـيدة العربيّة القديمة بوصـف الوحوش من ضـباء وآرام

(40) محمّد بن علي بن عبد الله بن رزين بن ســليمان بن تميم الخزاعيّ: من أهل الكوفة. شــاعر مطبوع، سريع الخاطر رقيق الألفاظ. انقطع إلى أمير الرقّة عقبة بن جعفر الخزاعيّ فأغناه عن سواه. ولقبّه أبو الشّــيص، ويقال للنّخلة إذا لم يكن لها نوى وذلك رديء مذموم. وهو ابن عمّ دعبل الخزاعيّ، فقد بصره في آخر عمره. قتله خادم لعقبة في الرقّة.

(41) النجّار، إبراهيم. مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون: بين الجدّ والهزل، القسم الثّاني، الجزء الأوّل: ثقافة البادية ومســالكها لدى ثلّة من شــعراء المائة الثّانية. طبعة 1، در الغرب الإسلاميّ، بيروت، 1997.ج 1، ص 209.

(42) المَرْوَةُ: واحدة المرْوِ. والمرْوُ: نوع من الحجر الصُّلب أبضُ برّاق. راجع في ذلك: معجم الدّوحة التّاريخيّ على الرابط التّالي:https://www.dohadictionary.org/

(43) الرَّضْــراض: الأرض الكثيرة الحَصَــى. راجع في ذلك: معجم الدّوحة التّاريخيّ. مادّة (ر. ض. ض).

(44) التّنوفة: الصّحراء الواسعة المقفرة. يقول فيها امرئ القيس:

وَتَنُوفَةٍ جَرْدَاءَ مُهْلِـكَةٍ   ♠   جَاوَزْتُـهَا بِنَجَائِبٍ فُتُـلِ

راجع في ذلك: امرئ القيس. ديوان امرئ القيس. اعتنى به وشرحه: المصطاويّ عبد الرّحمان، طبعة 2، دار المعرفة، بيروت، 2004. ص 143.

(45) المَهْمَهُ: الفلاةُ لا ماءَ بها ولا أنيسَ. راجع في ذلك: معجم الدّوحة التّاريخيّ. مادّة (م. هـ. م).

(46) مُلِسَت الأرضُ: استوتْ وخلتْ من الشّجر ونحوه. راجع في ذلك: نفسه. مادّة (م. ل. س).

(47) عِراضُ الشَّيْءِ: جانب مُحيطه الأقصر الذي يُقابلُ طوله. راجع في ذلك: نفسه. مادّة (ع. ر. ض).

(48) عليّ بن محمّد بن نصر بن منصور، أبو الحسن ابن بسّام: يقال له البسّاميّ، وهو من شعراء العصر العبّاسيّ. شاعر هجّاء، من الكتّاب، عالم بالأدب والأخبار، من أهل بغداد. نشأ في بيت كتابة. وتقلَّد البريد. وأكثر شعره في هجاء والده وهجاء جماعة من الوزراء.

(49) النجّار، إبراهيم. مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون: بين الجدّ والهزل، القسم الثّاني، الجزء الثّالث: بين الجدّ والهزل. طبعة 1، در الغرب الإسلاميّ، بيروت، 1997.ج 3، ص 163.

(50) البيداء: الفلاةُ الخالية. راجع في ذلك: معجم الدّوحة التّاريخيّ. مادّة (ب. ي. د).

(51) أدونيس، ديوان الشّعر العربيّ، ج 1، ص 23.

(52) راجع فصل «الصّحراء» ضمن دائرة المعارف الإسلاميّة:

Callot, Y and, R. Vernet and, J. Bisson. «al-Ṣaḥrāʾ», In Encyclopédie de l’Islam, T 3, Éditions Brill, Leyde, 2010. p 877.

(53) راجع فصل «الصّحراء» ضمن دائرة المعارف الإسلاميّة:

Callot, Y and, R. Vernet and, J. Bisson. ibid. p 875.

(54) الصّويان، سعد العبد الله. الصّحراء العربيّة ثقافتها وشعرها عبر العصور: قراءة أنتروبولوجيّة. طبعة 1، الشّبكة العربيّة للأبحاث والنّشر، بيروت، لندن، 2010. ص 623.

(55) أدونيس. ديوان الشّعر العربيّ، ج 1، ص 63.

(56) الصّويان، سعد العبد الله. سابق. ص 650.

(57) أدونيس، ديوان الشّعر العربيّ، ج 1، ص 116.

(58) المعَيَّلُ: المهمَل الذي أسيء غِذاؤه. راجع في ذلك: معجم الدّوحة التّاريخيّ. مادّة (ع.ي. ل).

(59) أدونيس، ديوان الشّعر العربيّ، ج 1، ص 34.

(60) أدونيس، ديوان الشّعر العربيّ، ج 1، ص 34.

وذئاب. وفي فضاء الصّحراء القَفْر استأنس الشّاعر المنفردُ بالوحْش وأَلِفَ السَّبُع وضاري الحيوان، فغدَا له إلفًا وخِلاّ، حتَّى استحقّ الشّعراء الصّعاليك «لقب ذئاب الصّحراء»[61]. وربّما لقدرتهم على التكيّف معها وتحدّي قساوتها، استعاروا منها توحُّشا فاستوحشوا فعل الذّئاب.

لقد مثّل الذّئب على نحو دالّ وحشيّة الصّحراء التي لا ترحم وأشار فضْل إشارة إلى توقه لتحدّي الوحش وقهره وترويضه، وما في ذلك من رغبه في «استئناس وحشيّة الصّحراء»[62]. وعلى نحو غير مألوف عبّر الشّعراء اللّصوص والغاضبون بعامّة عن «فروسيّة اللاّ انتماء»[63]، حتّى غدتْ لهم الوحشةُ أنسًا، والقفرُ الخلاء عامرا ضاجّا بالحياة. فتأبّط شرّا (توفّي 530م) كان يرى «الوحشة الأنسَ الأنيس»[64]. وكان عُبيْد بن أيّوب العُنبريّ[65] «يستأنسُ بالوحْش»[66].

وتوسعيا لنواة الدّلالة هذه، كان الشّاعر الأُحَيْمَر السّعديّ (توفّي 170هـ)[67]، يألَف عُواء الذّئاب، فيُعاشِرها ويتحدَّث بلسانها. ويعكس تآلف الشّاعر مع الذّئب وتماهيه مع الصّحراء تأكيدا صارخا على موقعه الهامشيّ «خارج دائرة المجتمع العشائريّ، ونبذه لهم، وعلى تمرّدهم على أعراف القبيلة حتَّى خلعتهم قبائلهم وقطعت الصّلة معهم»[68]. ومن لطيف الرّمز والإشارة أنّ عواء الذّئاب قريب في الدّلالة من بكاء الأطلال، حالتان «متناظرتان تعبّران عن وحشة المكان»[69]. إلاّ أنّ حركة الأُحَيْمَر في المكان تُسلِمه حتمًا إلى غُربة الشَّريد الذي يألَف ضارِي الوحوش بدلا من الإنسان. صار الشّاعر يستأنِس بالذِّئب إذْ عَوى، ويفزَع من صوت الإنسان، يقول في هذا المعنى [من الطّويل][70]:

عَوَى الذِّئْبُ فاسْتَأْنَسْتُ بالذِّئبِ إذْ عَوَى وَصَوَّتَ إنْسَانٌ فَكِدْتُ أطِيرُ

وتتمَّة لهذا المعنى صارت ضاري الوحوش تُونسه بينما الإنسان يُرعبه. وجد الشّاعر في الوحوش السّائبة بديلا يستعيض به عن مجتمع ينبذه، وقبيلة تزوَرُّ له وتُعرضُ عنه وتقلِب له ظهر المجنّ. ومن أمثلة ذلك ما تتبّعناه في وصف الأُحَيْمَر السّعديّ لرحلته المغتربة في الفضاء، بعد أنْ ضرَّب في الفلاة حتّى صارتْ هـ وسادة، وتماهَى مجازيّا معها، فرمز بها لكلّ ما دلّ على الألفة و«الدّفء الأصليّ»[71] والملاذ الآمن الذي يعيش فيه ويحتمِي داخله، أو كما يصدح فيقول [من الخفيف][72]:

لَوْ تَرَانِي بِذِي المِجَازَةِ فَرْدًا وَذِرَاعُ ابْنَةِ الفَلاَةِ وِسَادِي

غير أنّه في الفلاة أحسّ بالأنس، فاتّخذ الوحشة والانفراد خصالا له، ووجدها بُقعة حميمة من الأرض، يمكن أنْ يضرب فيها بجذوره ويثبّت على أديمها هويّته. يقول في شجن مُشيدا بها [من الخفيف][73]:

أَوْحَشَ النَّاسُ جَانِبَيَّ فَمَا آنَسُ إلاَّ بِوحْشَتِي وَانْفِرَادِي

وعلى هذا السّمت عُدَّ سؤال الصّحراء، سؤال «وجود وذاكرة وعلائق وأمكنة»[74]. إنّه سؤال يمتدّ إلى أفضية أخرى كالرّبع والطّلل والبادية، والجبل وغيرها، وهو أيضا سؤال العمران والخراب، والألفة والخوف.

وليس بعيدا عن هذا المقصد الشّعريّ، ما وضُح لنا في شعر المرَّار الفَقْعَسِيُّ[75] حين قصَّ في بعض شعره تجربته في مجاهل الصّحراء، فصدح بنشيدها، وعبّر عن دواعي الرّحيل إليها، مادامت في مقدّره شفاء للهموم، وصَرْما قاطعا بائِنًا لانشغال الهمّ وتحيُّر الخاطر. يقول [من المتقارب][76]:

وَجَدْتُ شِفَاءَ الهُمُومِ الرَّحِيلَ فَصُرْمُ[77] الخِلاَجِ[78] وَوَشْكُ الفَضَاءِ

لقد ألفَى المرَّار الفَقْعَسِيُّ في تجربة الرّحيل إلى أرض فضاء، والإيواء إلى خافق من الأرض منخفض خال من البشر، تجربة عبور فريدة نحو الأجواء التي تضطرب فيها الرّيح،فيقول بمزيد بيان [من المتقارب][79]:

لجَأْتُ بِصَحْبِي إِلَى خَافِقٍ[80] عَلَى نَبْقَتَيْنِ بِأَرْضٍ فَضَاء

وتتّضح صورة الصّحراء في شعر المرَّار الفَقْعَسِيُّ، فضاء لا رعي فيه ولا ماء، واسعة ملساء لا نبات فيها ولكنّها تظهر أيضا لماعة خلاء، يُبرق فيها

(61) الصّويان، سعد العبد الله، الصّحراء العربيّة ثقافتها وشعرها عبر العصور، ص 621.
(62) الصّويان، سعد العبد الله، الصّحراء العربيّة ثقافتها وشعرها عبر العصور، ص 638.
(63) أدونيس، ديوان الشّعر العربيّ، ج 1، ص 27.
(64) أدونيس، ديوان الشّعر العربيّ، ج 1، ص 27.
(65) عُبيْد بن أيّوب العُنبريّ: شاعر من بني العُنبر، من شعراء العصر الأمويّ من الصّعاليك. كان لصّا حاذقًا. أباح السّلطان دمه، وتبرّأ منه قومه، فهرب في مجاهل الأرض، واستصحب الوحوش، وأنِس بها، وذكرها في أشعاره. وكان يزعم أنّه يُرافق الغول والسّعلاة ويبيت مع الذّئاب والأفاعي.
(66) أدونيس، ديوان الشّعر العربيّ، ج 1، ص 27.
(67) كان الأحيْمر بن الحارث بن يزيد السّعديّ لصّا ماردا خارجا فاتكا كثير الجنايات، من أهل بادية الشّام. خلعه قومه لجرائره كما خُلع قبله كثير من صعاليك الجاهليّة والإسلام. أتَى العراق، وقطع الطّريق، فطلبه أمير البصرة سليمان بن عليّ ابن عبد الله بن عبّاس ففرّ، فأهدر دمه وتبرّأ منه قومه. ولما خاف السّلطان هرب في مجاهل الأرض وأبعدَ في قِفارها. راجع في ذلك: النجّار، إبراهيم. نفسه. ج 3، ص 23.
(68) الصّويان، الصّحراء العربيّة ثقافتها وشعرها عبر العصور، ص 649.
(69) الصّويان، الصّحراء العربيّة ثقافتها وشعرها عبر العصور، ص 642.
(70) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 3، ص 29.
(71) باشلار، غاستون، جماليّات المكان، ص 38
(72) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 3، ص 28.
(73) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 3، ص 28.
(74) أدونيس، ديوان الشّعر العربيّ، ج 1، ص 41.
(75) المرّار الفَقْعَسِيُّ: شاعر أدرك الدّولة العبّاسيّة، وعَرف السّجن والفرار إثر ملاحقة السّلطان له لسرقته طريدة.
(76) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 1، ص 239.
(77) الصَّرْمُ:الهَجْرُ والقَطْعُ البائنُ، راجع في ذلك: معجم الدّوحة التّاريخيّ، مادّة (ص.ر.م).
(78) الخِلاجُ:الهمُّ وانشغال الخاطر، وهو الفساد والاضطراب، راجع في ذلك:نفسه، مادّة (خ.ل.ج).
(79) النجّار، إبراهيم. سابق. ج 1، ص 240.
(80) الخافِقُ من الأجْواء:الواسِعُ الذي تضطرب فيه الرّيح،راجع في ذلك: معجم الدّوحة التّاريخيّ، مادّة (خ.ف.ق).

السَّـراب ويضـطرب أشـدّ الاضـطراب. إنّها فضـاء التحوّل المميّز، الذي يكشِـف عن هويّة الكيان الفرديّ والجماعيّ، ويهمِس همسًـا بملامح مقوّمات الإنسـان العربيّ الثّقافيّة، وقد اعترك الأفضية وتكيّف معها، وحلّ فيها حلولا رمزيّا. يقول الشّاعر في رسمها [من المتقارب][81]:

وَلَمَّـاعَةٌ[82] مَـا بِهَـا مِـنْ عِـلاَمٍ وَلاَ أَمَرَاتٍ[83] وَلاَ رِعْـيِ مَـاءِ

ويدأَب المرّار الفَقْعَسِـيُّ على توسـيع نواة الصّـحراء، فإذا هي عنده فضـاء على قدر منتهى البصر، بل هي سماء وما في هذه الاستعارة من تأكيد على صـورة الامتداد والاتّسـاع والأفق غير المتناهي، فيه من الانطلاق ورمزيّته دلالات وافرة. يقول في هذا الباب [من المتقارب][84]:

إِذَا نَـظَرَ القَـوْمُ مَـا مِيلُـهَا[85] رَأَى القَـوْمُ دَوِيَّـةً[86] كالسَّـمَاءِ

ومن معاني الصّـحراء التي وجدنا لها أثرا في شـعرهم أرض المهالِك والمتالِف. يقول في هـذا المعنى اللّطيف ثعلبـة بن عمرو (عـاش في ق 6 م) [من الطّويل][87]:

أَمِـنْ حَـذَرٍ آتِي المَهَـالِكَ سَـادِرًا[88] وَأَيَّـةُ أَرْضٍ لَيْسَ فِيهَا مَتَـالِفُ؟

وفي مواضع أخرى من شـعر العرب تتبدَّى الصَّـحراء أرضـا يَحارُ بها الهادون لدوام السَّـير فيها، وهي أرض المهَامِه والخَرُوق، أرض الرّياح الشّـديدة الباردة، يخلو منها الأنيس الرَّفيق ويَكثر بها الضَّـاري من الوَحْش والحيوان، ألمْ يقلْ الأسـود بن يَعفُر النَّهْشـليّ (توفّي نحو 600 م)[89] فيها [من البسيط][90]:

وَسَمْحَةِ المشْيِ شِمْلاَلٍ[91] قَطَعْتُ بِهَا أَرْضًـا يَحَـارُ بِهَا الهَـادُونَ دِمِـومًا

مَهَـامِهًا وَخَـرُوقًا[92] لاَ أَنِيـسَ بِهَا إِلاَّ الضَّوَابِـحُ[93] وَالأَصْـدَاءُ والبُومَا

وعلى هذا السَّمت العجيب من النّحت اللّغويّ، لم يكنْ من اليسير حينئذ وصف الصّحراء، ولا تشقيق معانيها الثّواني، إلاّ لمن قد ضرَّب فيها، وعَرف طُرقها وسـلك دُروبها، وعاشَـر وحشَـها، وكان على دراية واسـعة بأسـرارها «ومعرفة دقيقة بشِـعَابها ومسـالكها ومواردها، وله القدرة على الاهتداء في مجاهلها واختراق متاهاتها»[94]. يقول الحطيئة (توفّي نحو 59 هـ) في وصف البيداء التي لمْ يُعرف لها سـاكن، وقد خاض غمارها وطواها لثلاث عاصِب البطن [من الطّويل][95]:

وَطَاوِي[96] ثَلاَثٍ عَاصِبِ[97] البَطْنِ مُرْمِلٍ بَيْدَاءَ[98] لَمْ يَعْرِفْ بِهَا سَاكِنٌ رَسْمًا

فهِم الصّعلوك إذنْ، وهو يتّخذ من هذا الفضاء الشّاسع موطِنا له، ومستقرّا يسـتعيضُ به عن مضـارب أفردته، وعشـيرة حاربته، أنْ لا حياة له فيها إلاّ متى تمرَّس بالعيش في هـذه «القِفـار الجرداء المهلكـة والمفـازات الموحشـة المسكونة بالأهوال والمحفوفة بالمخاطر»[99]. قِفارٌ خالية من البشر، متّسعة الأرجاء، لكثرة أهوالها يخافها حتّى الأدلاّء المحنَّكون، وهم يسلكونها ويمشون في دروبها الوعرة، بلْ لا يسـتطيعون كتمان خوفهم أو مداراته من طول السَّير فيها. يقول المرّار الفَقْعَسِيُّ في رسمها [من المتقارب][100]:

يُسِـرُّ الدَّلِيـلُ بِهَـا خِيـفَةً ومَـا بِكَآبَتِـهِ مِـنْ خَفَـاءِ

غير أنَّ صـحراء المرّار الفَقْعَسِـيُّ الشّـاعر ليسـت شـرّا محضـا ولا بلاء أبديّا مُسـتطيرًا، وإنّما هي أيضـا في عُرفه الملجأ الأخير والحضـن المنيع حين يَمَلُّ

---

(81) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 1، ص 239.

(82) اللمَّاعةُ: الفلاةُ يبرُق فيها السَّراب ويضطربُ. يقول هُدبة بن خَشرَم (توفّي قبل 50 ق. هـ):

وَلِلأَرْضِ كَمْ مِنْ صَالِحٍ قَدْ تَلَمَّـأَتْ ♠ عَلَيْهِ فَوَارَتْهُ لِمَّاعَةٍ قَـفْرِ

راجع في ذلك: ابن الخشرم، هدبة. شعر هُدبة الخَشِرم العذريّ. تحقيق: الجبوري يحي، طبعة 2، دار القلم، الكويت، 1986. ص 103.

(83) المرْتُ من الأماكن: الواسـعُ الأملَسُ، المقفِر الذي لا نبات فيه. راجع في ذلك: معجم الدّوحة التّاريخيّ. مادّة (م. ر. ت).

(84) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 1، ص 239.

(85) الميلُ من الأرض: مسـافة قَدْرُ مُنتهَى مدّ البصـر. والميلُ أيضـا: القطعةُ من الأرض ما بين العلمين. يقول ذو الرُّمّة (توفّي نحو 117 هـ):

أَرَبْتُ المَهَارِي وَالِدَيْهَا كِلَيْهِمَا ♠ بِصَحْرَاءَ غُفْلٍ يَرْمَحُ الآلَ مِيلُهَا

راجع في ذلك: ذو الرُّمّة. ديوان ذي الرُّمّة غيلان بن عقبة العَدَويّ: شـرح: أبي نصـر أحمد بن حاتم الباهليّ صـاحب الأصـمعيّ، رواية: أبي العبّاس ثعلب. حقّقه وقدّم له وعلّق عليه: أبو صـالح عبد القدّوس، طبعة 3، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، 1993. ج 2، ص 925.

(86) الدَّوِيَّةُ أو الدَّاوِيَةُ: الفلاة المنبسـطة، الفسيحة الخاوية، يَسمع فيها المسافر دويًّا. يقول في هذا الباب عُبيْد بن عبد العُزّى السّلاميُّ الأزديّ (توفّي قبل 50 ق. هـ):

وَدَاوِيَّةٍ لاَ يَأْمَنُ الرَّكْبُ جَوْزَهَا ♠ بِهَا صَارِحَاتُ الهَامِ والبُومِ يَهْتِفُ

راجع في ذلك: البغداديّ، ابن ميمون. منتهى الطّالب من أشـعار العرب: جمع: ابن ميمون البغداديّ، تحقيق وشـرح: طريفي محمّد نبيل، طبعة 1، دار صـادر، بيروت، 1999. ج 8، ص 283.

(87) أدونيس، ديوان الشّعر العربيّ، ج 1، ص 193.

(88) سَـدَر الشَّـخْصُ في الظَّلاَل ونحوه: لم يُبالِ بما صـنعَ. راجع في ذلك: معجم الدّوحة التّاريخيّ. مادّة (س. د. ر).

(89) الأسـود بن يَعفُر النّهشـليّ الدّراميّ التّميميّ، أبو نهشـل، وأبو الجراح: شـاعر جاهليّ، من سادات تميم. من أهل العراق. كان فصيحا جوادا. نادم النّعمان بن المنذر. ولما أسنَّ كفَّ بصره.

(90) أدونيس، ديوان الشّعر العربيّ، ج 1، ص 172.

(91) الشِّمِلالُ من الدّواب: السَّريعُ. راجع في ذلك: معجم الدّوحة التّاريخيّ. مادّة (ش. م. ل).

(92) الخَرُوق: ريحٌ شـديدةٌ باردةٌ تَهبُّ من شمال غرب القِبلة. راجع في ذلك: نفسـه. مادّة (خ. ر. ق).

(93) الضّابِحُ: الثّعلب. راجع في ذلك: نفسه. مادّة (ض. ب. ح).

(94) الصّويان، سعد العبد الله، الصّحراء العربيّة ثقافتها وشعرها عبر العصور، ص 626.

(95) أدونيس، ديوان الشّعر العربيّ، ج 1، ص 376.

(96) الطّاوِي البلاد: الذي يقطعها ويجوبها أرضا بعد أرض. يقول في هذا الباب زُهيْر بن أبي سُلْمَى (توفّي 609 م) :

وَغَرْوٌ فَمَا يَنْفَكُّ فِي الأَرْضِ طَاوِيًا ♠ تَقَلْقَلُ أَفْرَاسٌ بِهِ وَرَوَاحِـلُ

راجع في ذلك: ابن أبي سُلْمَى، زُهيْر. شعر زُهيْر بن أبي سُلْمَى. صنعه: الشَّنْتَمَّري الأعلم، تحقيق: فباوة فخر الدّين، طبعة 3، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1980. ص 266.

(97) العَاصِب الفم: الذي جفّ ريقه من الجوع ونحوه. والعَاصِب الغبار ونحوه: الثّائر. راجع: معجم الدّوحة التّاريخيّ. مادّة (ع. ص. ب).

(98) وفي بعض الرّوايات [تَيْهَاء]. والتّيهاءُ: الفلاة التي لا يُهتَدَى فيها. راجع في ذلك: نفسه. مادّة (ت. ي. هـ).

(99) الصّويان، سعد العبد الله، الصّحراء العربيّة ثقافتها وشعرها عبر العصور، ص 626.

(100) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 1، ص 239.

المكْثَ في المكان، فإذا به يعود إليها بأكوارها أيْ بالرّحْل وبأداته يبثّها أشجانه، ويُبادلها شكواه، أو كما يقول في هذا المنحى [من المتقارب][101]:

إِلَـى أَنْ مَـلَلْتُ ثَـوَاءَ[102] المقِيـلِ وَكُنْـتُ مَلُـولاً لِطُـولِ الثَّـوَاءِ

فَـقُـمْنَـا إِلَيْـهَا بِأَكْـوَارِهَـا[103] فَكَـادَتْ تُكَـلِّمُنَا بِاشْتِـكَاءِ

ويُجازَى الشّـاعر، ويغنَم. فما إنْ اجتاز المفاوز، ونجا من رحلة التّيه في الفلاة، حتّى بانت له الطّريق بعد خفاء، وكأنّ ما كان بها سَقَم بعده شفاء، أو كما عبّر عن ذلك المرّار الفَقْعَسِيُّ الشّاعر [من المتقارب][104]:

وَوَاجَـهَهَا بَلَـدٌ مَعْـلَـمٌ وبَـانَ الطَّـرِيقُ فَـمَا مِنْ خَـفَاءِ

وَقَضَّـتْ مَـآرِبَ أَسْـفَـارِهَا وَحُـبُّ الإِيَـابِ كَحُبِّ الشِّفَاءِ

لقد أفلح الشّاعر الصّعلوك في أنْسَنة وحشيّة الصّحراء، وتمكّن من أنْ يُداوِر عُنف الجماعة التي ما فتئت تَطرد الخارجين عن قانونها، وتُقصيهم خارج مضاربها، وتُبعدهم نحو الصّحاري والفِجاج القَفْر والأحيَاز النّائية البعيدة. وهكذا مارسَت الجماعة «سُلطتها في عمليّة التقبّل والنّبذ، والاحتواء أو اللَّفْظ»[105].

ولعلّ ما بان لنا من شعر عُروة بن الوَرد العبسيّ (توفّي 594 م وقيل 616 م) الشّاعر الصّعلوك[106]، من وصف لأرض الفِجاج والرّحيل، خير دليل على تحوّل الصّحراء مجازيّا لأرض المقام والأمن عند الصّعلوك المطارد. وقد أمكنه كأضرابه من الشّعراء القُدامَى أنْ يحوّل الصَّحراء المتاه إلى ملجئ وحِضْن دافئ. دون أنْ يتخلّص من إسَار هذا التّأرجح بين الأزمنة والأفضية، «ففي اللّيل يأسره النّهار، وفي النّهار يحِنُّ إلى وسادة الحبيبة [..] في أعماقه شيءٌ دائم يعذّبه ويُثيره ويدفعه، ولا شيْء يرويه أو يُرضِيه أو يحدّه»[107].

استحال الرّحيل مذهبه وفي الوعِر من الطّرق سكنه. يقول في ذلك عُروة بن الوَرد الشّاعر [من الطّويل][108]:

وَسَـائِلَةٍ أَيْنَ الرَّحِيـلُ، وَسَـائِـلٍ وَمَنْ يَسْـأَلُ الصُّـعْلُوكَ أَيْنَ مَذَاهِبُـهْ

مَذَاهِبُـهُ أَنَّ الفِـجَـاجَ[109] عَرِيضَـةٌ إِذَا ضَنَّ[110] عَنْـهُ بالفِـعَالِ أَقَـارِبُهْ

وفضلا عن ذلك نؤكّد على أنّ الشّاعر الجاهليّ وما إنْ ينبذْ أفضية القبيلة المستقرّة المغلقة والمكتظّة، ويهجرها إلى الصّحاري الفسيحة والفلوات المقفرة الشّاسعة، حتّى ينجح في «تشطير المكان»[111]، إلى «أحزمة [..] مُشاغبة»[112]، تُعارض النّمطيّ والمسيّج من الأفضية.

ولا غرابة في ذلك مادام وعي الشّاعر المكانيّ «لا ينفصل تحليليّا عن الاجتماعيّ»[113]. بلْ إنّ الاجتماعيّ يُحَدُّ بالإقصاء المتبادل وبعلاقة التّمايز في الأمكنة، وبهذا يقوم المجال المأهول أو المملوك بنوع من التّرميز العفويّ للمجال الخلاء المشاع.

ويقودنا هذا الوعي المنهجيّ إلى تأمّل شعر عُروة بن الوَرد العبسيّ وأضرابه من الشّعراء، ويُسلمنا إلى محصّلة مفادها أنّ مسلك الشّاعر لبلوغ الأمكنة المشاغبة، لا يكون إلاّ بالرّحيل نحو الفِجاج الواسعة، وأنّ الصّحراء معه هي صِنو المكان اللاّمتناهي، الذي لا تستطيع الجماعة أن تُمارس فيه «قهرها»[114].

يَلجأ الشّاعر إليه رغبة منه في الانطلاق وارتياد ذُرى قصيّة، «والإفلات من سطوة السّلطة وابتكار القيم الجديدة وامتحان قدرات الذّات»[115]. لقد احتاج الشّاعر الصّعلوك إذنْ أنْ يرحل إلى أفضية جديدة، وأحبَّ أنْ يركُن إلى رُقعة من الأرض «يضرِب فيها بجذوره ويُؤصّل فيها هويّته»[116].

واضح من خلال ما ضَربنا من نماذج شعريّة عميقة الدّلالة أنّ الأرض المجدِبة القفر شديد ثقلها على نفس الشّاعر، خبِر أبو حكيمة (توفّي 240 هـ) أهوالها، ولكنّه لا يجدْ غير الصّبر والتضرّع لله لمداراة خطرها، وتخفيف وطأتها على روحه المكلمة. يقول فيها [من الطّويل][117]:

فَـلاَ تَحْمُـدُوهَا إِنْ رُزِقْتُـمْ بِهَـا الغِـنَى فَقَـدْ يُـرْزَقُ المِجْتَـازُ فِي البَلَـدِ القَـفْرِ

فَلَيْسَـتْ بِقَـاعُ الأَرْضِ تَنْفَـعُ أَهْلَـهَا وَلَكِـنْ مَقَـادِيرُ الإِلَـهِ التِي تَجْـرِي

وَمَا عَيْشُ قَوْمٍ تُجْدِبُ الأَرْضُ عِنْدَهُم بِمَا فِيهِ خِصْبُ العَالَمِينَ مِنَ القَطْرِ

وعلى هذا النّحو من القول يتبدّى لنا من خلال هذه النّصوص الشّعريّة الشّواهد، أنّ حياة الشّاعر العربيّ القديم في تقلّبها وقلقها وترحالها في

---

(101) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 1، ص 241.

(102) الثَّواءُ في المكان: النُّزُول فيه والإقامة. راجع في ذلك: معجم الدّوحة التّاريخيّ. مادّة (ث.و.ي).

(103) الكُور: الرَّحْلُ بأداته. راجع في ذلك: نفسه. مادّة (ك.و.ر).

(104) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 1، ص 241.

(105) لوتمان، يوري، مشكلة المكان الفنّي، تقديم وترجمة: قاسم سيزا، ضمن: جماليّات المكان. طبعة 2، عيون المقالات، الدّار البيضاء، 1988. ص 61.

(106) عُروة بن الوَرد العبسيّ: من غطفان. من شعراء الجاهليّة وفرسانها وأجوادها. كان يلقّب بعروة الصّعاليك، يجمعهم ويطعمهم ويتدبّر أمورهم. توفّي مقتولا.

(107) أدونيس، ديوان الشّعر العربيّ، ج 1، ص 27.

(108) أدونيس، ديوان الشّعر العربيّ، ج 1، ص 253.

(109) الفَجُّ: الطَّريقُ الواسع بين الجبلَيْن. راجع في ذلك: معجم الدّوحة التّاريخيّ. مادّة (ف.ج.ج).

(110) ضَنَّ بالشّيء: اشتدّ حرصه عليه وبُخله به. راجع في ذلك: نفسه. مادّة (ض.ن.ن).

(111) آوثوايت، وليم، قاموس بلاكويل ، فصل:«مكان»، ص 888.

(112) آوثوايت، وليم، قاموس قاموس بلاكويل، فصل: «مكان»، ص 888.

(113) آوثوايت، وليم، قاموس بلاكويل، فصل: «مكان»، ص 888.

(114) لوتمان، يوري، سيمياء الكون، ص 61.

(115) لوتمان، يوري، سيمياء الكون، ص 61.

(116) لوتمان، يوري، سيمياء الكون، ص 63.

(117) النجّار، إبراهيم. مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون: مسالك الرّثاء والتفجّع. القسم الثّاني، الجزء الرّابع، طبعة 1، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، 1997. ج 4، ص77.

المكان شبيهة بالصَّحراء، هي مثلها «مطلقةٌ ونسبيّةٌ، بسيطةٌ ومعقّدة، ثابتة وتنهار كالرّمل»[118]. إنّ علاقة الشّعر بهذا الفضاء علاقة جواريّة (Proxémique)[119]، ترسم بجلاء اتّصاله بغيره من الذّوات، وتكشف عمّا يختزنه من تجارب وما يعتَمِر في وجدانه من خبرات وما يرشَح في قاع نصوصه من رموز ودلالات.

في الطّلل والدّيار الدّارسة:

لئنْ انشغل الشّاعر العربيّ قديما يُحاور الأرض بيِيدها وفلاتها، وأخذ يستنطق صمتها الصّاخب، فقد وقف في المقابل أمام الأطلال الدّارسة يُسائِلها، ويستحضرُ صور الألفة والأحبّة، وقد مرُّوا بها وتركُوا وُشوما بأرجائها، أو قد يُعلن عن سخطه على الأطلال ساخرا منها، ولهذا عبّر الإنسان العربيّ بشعره عن ارتباطه الحيويّ والوثيق بأطلال المكان فصوّر ثقل الزّمن ووطأته عليه[120].

والنّاظر في الشّعر العربيّ الجاهليّ يألَفه زاخرا بالمقدّمات الطّلليّة التي تستعيد أسماء المواضع وتذكّر بشجن الأمكنة ويُوتوبيا (Utopia) الأفضية[121]، أفضية الطّلل ونوستالجيا (Nostalgia) المحبوب[122]. أفضية حميميّة قريبة الألفة من وجدان العربيّ، تذكّر بأماكن الظّاعِن والمرتحِل وبخصائص الدّيار وصورها وبذكرى الحبيبة وآثارها. ومن تلك النّصوص الشّعريّة ما يُقابلنا في مطلع معلّقة طرفة بن العبد (توفّي 60 ق. هـ) حين يصوّر أطلال ديار خولة، أو ما بقي منها وشما في اليد ولكنّه وشم محفور في شِغاف القلب [من الطّويل][123]:

لِخَوْلَةَ أَطْلاَلٌ بِبَرْقَةِ ثَهْمَدِ تَلُوحُ كَبَاقِي الوَشْمِ فِي ظَاهِرِ اليَدِ

إنّ الأفضية التي يصفها الشّعراء «تَبِينُ للنّاظر المتوسِّم، والعاقل المتبيّن، بذواتها [..] فهي وإنْ كانت صامتة في أنفسها، فهي ناطقة بظاهر أحوالها»[124].

وعلى هذا النّحو استنطقت العربُ الرَّبعَ، وخاطبتْ الطَّلَل، ونطقت عنه بالجواب على سبيل الاستعارة في الخطاب. ومن ألوان هذه المسَاءلة الشّعريّة ما نعثر عليه في هذا المقطع النصيّ، حين يُحاوِرُ الشّاعر الرَّبع، ويستنطقُ صمته، متعجّبا لهول ما أصابه بعد هجرة الأهل وما آل إليه حاله من وحشة وتهدّم، يقول في بيان ذلك [من الكامل][125]:

يَا رَبْعُ بِشْرَةَ بالجِنَابِ تَكَلَّمِ وَأَبِنْ لَنَا خَبَرًا وَلاَ تَسْتَعْجِمِ

مَا لِي رَأَيْتُكَ بَعْدَ أَهْلِكَ مُوحِشًا خَلِقًا كَحَوْضِ البَاقِرِ[126] المتَهَدِّمِ

ويتذكّر عبد الله بن عبد الحميد اللاّحقيّ[127] الأطلال، يُسائلها على عادة الشّعراء القُدامى الأوائل، متحسِّرًا على زمان الوصل ولقاء الأحبّة بالمضارب، يُضفي «قيمة على الحيّز الذي يعيش فيه»[128]، ويُدافع في الآن ذاته على حيّزه، ويذود عن حوضه «ويمنع الآخرين من الوُلُوج إليه»[129]. يقول [من المنسرح][130]:

يَا طَلَلَ الحَيِّ جَادَكَ الطَّلَلُ مَالَكَ وَحْشُ العِرَاضِ يَا طَلَلُ

لَسْتُ أَرَى فِيكَ مَنْ عَهِدْتُ وَقَدْ كُنْتَ لَهُمْ مَوْطِنًا فَمَا فَعَلُوا

بهذا استوَى سُؤال الطّلل عُرفا مستقرّا في نصوص الشّعراء القدامى، فما إنْ «يُصادف الشّاعر منزلا دارسا، ويعرف أنّه محلّ مجلس سعيد منصرم مع المحبوبة، حتّى يستسلم لذكريات حزينة»[131]، ومن هذا اللّون الشّعريّ

---

(118) أدونيس، ديوان الشّعر العربيّ، ج 1، ص 28.

(119) راجع في ذلك مفهوم الجواريّة في علاقته بالمسافة ماديّة كانت أم وجدانيّة رمزيّة وباعتبارها موروثا ثقافيّا مخصوصا:

»La proxémie est la relation que les individus entretiennent avec la distance sous tous ses aspects (distance physique, distance perçue, représentations de ce qui est proche ou lointain). Le champ d'étude de la proxémie, issu de l'anthropologie. D'après Luc Vacher, le terme est dû à l'anthropologue Edward T. Hall, chez qui il désignait : l'ensemble des observations et théories concernant l'usage que l'homme fait de l'espace en tant que produit culturel spécifique».)Hall, 1963 [1971] cité par Vacher, 2014, p. 2)

(120) لوتمان، يوري، سيمياء الكون، ص 60.

(121) صاغ المفكّر السّير توماس مور (1478-1535) مصطلح يوتوبيا من الكلمتيْن اليونانيّتيْن (OU) وتعني (لا) و(TOPOS) وتعني (مكان)، والتّرجمة الحرفيّة للجملة هي: (ليس في مكان).

(122) النّوستالجيا: من اليونانيّة القديمة وتعني الحنين المفرط للوطن وشوق العودة إلى البلد. وهو مصطلح يُستخدم أيضا لوصف الحنين إلى الماضي، وتذكّر أبسط الأشياء في الأمكنة التي يفارقها من يُصاب بالنّوستالجيا، وهو ما يُؤدّي إلى الألم المبرح الذي يعانيه المريض إثر حنينه للعودة إلى بيته وخوفه من عدم تمكّنه من ذلك للأبد. وقد وُصفت النّوستالجيا على أنّها حالة مرضيّة أو شكل من أشكال الاكتئاب في بدايات الحقبة الحديثة، ثمّ أصبحت بعد ذلك موضوعا بالغ الأهميّة مع الرّومنطيقيّين. راجع في ذلك: الشّربينيّ، لطفي. عادل، صادق. معجم مصطلحات الطبّ النّفسيّ. طبعة 1، مؤسّسة الكويت للتقدّم العلميّ، الكويت، 2003. ص 123.

(123) ابن العبد، طرفة. ديوان طرفة بن العبد. شرحه وقدّم له: ناصر الدّين مهدي محمّد، طبعة 3، دار الكتب العلميّة، بيروت، 2002. ص 19.

(124) ابن وهب الكاتب، أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان. البرهان في وجوه البيان. تحقيق: مطلوب أحمد، والحديثيّ خديجة، طبعة 1، جامعة بغداد، بغداد، 1967. ص 60.

(125) ابن وهب الكاتب، أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان. نفسه. ص 61.

(126) البَاقِرُ من الدَّوَاهِي ونحوها: الذي يفتَحُ الشّيء ويشقّه. راجع في ذلك: معجم الدّوحة التّاريخيّ. مادّة (ب.ق.ر).

(127) عبد الله بن عبد الحميد اللاّحقيّ: شاعر عبّاسيّ من الشّعراء المنسيّين. توفّي في أوائل القرن 3 هـ. من فتيان البصرة الظّرفاء. عمّر طويلاً وكان مُوسرا لا يعرف إلاّ الشّرب والسّماع.

(128) لوتمان، يوري، سيمياء الكون، ص 60.

(129) لوتمان، يوري، سيمياء الكون، ص 60.

(130) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 3، ص 248.

(131) فاجر، إيفالد. أسس الشّعر العربيّ الكلاسيكيّ والشّعر العربيّ القديم. ترجمة وتعليق: بحيري سعيد حسن، طبعة 1، مؤسّسة المختار للنّشر والتّوزيع، القاهرة، 2008. ص 149.

نذكر ما أتاه ناهض بن ثومة (توفّي 220 هـ)[132] لَمَّا وقف على الطّلل، فشرع يُسائله وقد محته السّوافي وارتمى فوقه الحصى [من الطّويل][133]:

أَمِنْ طَلَلٍ بَيْنَ الكَثِيبِ وَأَخْطَبٍ[134] مَحَتْهُ السَّوَافِي[135] والرِّهَامُ[136] الرَّشَارِشُ

وَمَرُّ السَّوَاجِي[137] فارْتَمَى فَوْقَهُ الحَصَى يَدُقُّ النَّقَا مِنْهُ مُقِيمٌ وَطَائِشُ [138]

ويستتبع الوقوف على الطّلل في شعر ناهض بن ثومة وصف المنازل والدّيار وقد كانت في سالف الزّمن شامخة كالقَهْب كأنّها الجبال السّامقة الطّويلة العظيمة رمز الرّفعة والمجد والشّموخ. إنّها منازل الرّفعة لا منازل الخفض، بل هي أيضا في صورة الرِّماح المسدّدة بما يذكّر بالشدّة في الحرب والقدرة على تحقيق الغلبة والنّصر، ألم يصدح بذلك قائلا [من الوافر][139]:

أَلاَ حَيِّ المَنَازِلَ بَيْنَ رُمْحٍ وَبَيْنَ القَهْبِ[140] دَارِسَةَ المِعَانِي

وتتواصل الكتابة على السنّة الطّلليّة، وتطالعنا فيما تأمّلناه من شعر المختارات نصوص حبَّرها الشّاعر ربيعة الرّقي (توفّي 198 هـ)[141]، حين سلك مسلك شعراء الجاهليّة، فبدأ مقطوعته بوقفة طلليّة اكتملت عناصرها جميعا من ذكر الدّيار وتعيين اسم الحبيبة والدّابة وسيلة الرّحلة، وتصوير حال المحبوب وما عاشه من عَبْرَة وبكاء وأشجان. يقول في ذلك [من الطّويل][142]:

خَلِيلَيَّ هَذَا رَبْعُ[143] لَيْلَى فَقَيِّدَا بَعِيرَيْكُمَا ثُمَّ ابْكِيَا وَتَجَلَّدَا

وَإِلاَّ فَسِيرَا وَاتْرُكَانِي وَعَوْلَتِي أَقُلْ لِجَنَابَيْ دِمنَةِ الدَّارِ أَسْعَدَا

وقد يقف الشّاعر على حيّه بعد أنْ تلفّع باللِّوى كأنّه الرّمل المتعرّج في حركته وعنفه وتقلّبه الشّديد. ومن ألوانه ما ظفرنا به في شعر أبي فرعَوْن السَّاسِي[144] لما صوّر منازل أهله بهذه الاستعارة الحيّة [من الرّجز][145]:

سُقْيًا لِحَيٍّ بِاللِّوَى[146] عَهِدْتُهُمْ مُنْذُ زَمَانٍ ثُمَّ هَذَا[147] رَبْعُهُمْ

وفي نصوص الشّعراء أيضا صور مثيلة للطّلل، يكشف عنها ضيق الشّاعر بالأمكنة ونفوره منها، وتأمّله لأطلالها الدّارسة وقد دحتْ وبادتْ. يقول الأحَيْمر السّعديّ في هذا الباب [من الطّويل][148]:

يُذَكِّرِنِي أَطْلاَلُكُنَّ إِذَا دَحَتْ عَلَيَّ ظِلالُ الدَّوْمِ وَهْيَ هَجِيرُ

ومن الصّور الأخرى الكثيرة التي تبرزُ في مدوّنة المختارات التي اعتمدناها، ما يعبّر فيه الشّاعر عن «ألم الحبّ»[149]، ويبوح من خلاله «بحزنه لفَقْد الحبيبة»[150]. ولا يتورّع في قسم النّسيب واستدعاء الطّلل عن ذكر اسم الحبيبة «وسلسلة من أسماء الأماكن»[151]، فيذكر «مضاربها المهجورة»[152]، واصفا في الآن نفسه المعشوقة وقد سلبته قلبَه وأجّجت ناره.

على أنَّ شعرَهم طافحٌ بصور موكب رحيل الحبيبة عن الدّيار والأرض التي بصمتها بذكراها، معبّرٌ بعمق عن تجربة مؤلمة، يبتَسِرُها الشّاعر خالد الكاتب (توفّي نحو 260 هـ)[153] بكثير من شجن اللّحظة الحارقة، لحظة يتساوَى فيها سَوْق الرّكائب بالموت. تلبَّسَ المكان بوجود الشّاعر نفسه، وصار الرّحيل عنه رحيلا معجّلا للموت. يُنشد الشّاعر فيقول [من البسيط][154]:

زَمُّوا المَطِيَّ غَدَاةَ البَيْنِ وَارْتَحَلُوا وَخَلَّفُونِي عَلَى الأَطْلاَلِ أَبْكِيهَا

نَفْسِي تُسَاقُ إِذَا سِيقَتْ رَكَائِبُكُمْ فَإِنْ عَزَمْتُمْ عَلَى قَتْلِي فَسُوقُوهَا

على هذا الضّرب من التّصوير كانت كتابة الأطلال كتابة عن المكان بجميع محمولاته الثّقافيّة، وليس الطّلل إلاّ أجلَى تلك التّصوّرات الثّقافيّة لسكن العربيّ القديم في العالم على نحو أليف. على أنّ كتابة الطّلل، كانت مدعاة

(132) ناهض بن ثومة: من بني عامر بن صعصعة التي أصلها من نجد وشرق الحجاز. وهو من شعراء القيسيّة القلائل في القرن الثّاني. ينغرس شعره في صميم فضاءات البادية بالعراق والشّام. وتنفجّر منه ثقافة الصّحراء متجدّدة لم تمسَّها لوثة المدينة.

(133) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 1، ص 182.

(134) الأخْطَبُ من الأشياء: الأخضر اللّون. راجع في ذلك: معجم الدّوحة التّاريخيّ. مادّة (خ.ط.ب).

(135) السَّوافُ: داءٌ يأخذُ في الإبل والغنم فيُهلِكُها. راجع في ذلك: نفسه. مادّة (س.و.ف).

(136) الرِّهَامُ من الطَّيْر: ما لا يُصادُ. راجع في ذلك: نفسه. مادّة (ر.ه.م).

(137) السَّاجِيَة: المطر الشَّديدُ يُقْشِرُ وجه الأرض. راجع في ذلك: نفسه. مادّة (س.ح.ي).

(138) الطَّائِشُ: المضطربُ في حركته. راجع في ذلك: نفسه. مادّة (ط.ي.ش).

(139) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 1، ص 185.

(140) القَهْبُ من الجبال: الطّويل العظيم. راجع في ذلك: معجم الدّوحة التّاريخيّ. مادّة (ق.ه.ب).

(141) ربيعة بن ثابت بن لجأ بن العِيذار الأسديّ الرّقي: شاعر غزل مقدّم. وُلد ونشأ في الرّقّة على نهر الفرات في سوريّة. كان ضريرا، وكان يُلقّب بالغاوي. عاصر المهديّ العبّاسيّ ومدحه بقصائد كثيرة. وكان الرّشيد يأنس به، وله معه مُلَح كثيرة.

(142) النجّار، إبراهيم. مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، القسم الثّاني، الجزء الثّاني: مسالك الغزل، طبعة 1، در الغرب الإسلاميّ، بيروت، 1997.ج 2، ص 286.

(143) الرَّبْعُ: المنزل ودار الإقامة. يقول أحَيْحَة بن الجلاّح الأوسيّ (توفّي قبل 100 ق. هـ) في هذا الباب:

أَخْلَقَ الرَّبْعُ مِنْ سُعَادَ فَأَمْسَى ♠ رَبْعُهُ مُخْلِقًا كَدَرْسِ المِلاَءِ

راجع في ذلك: الفريحات، عادل. الشّعراء الجاهليّون الأوائل. طبعة 2، دار المشرق، بيروت، 2008. ص 440.

(144) أبو فرعَوْن السَّاسِي: شاعر عبّاسيّ، يُنسب إلى قرية السّاس أسفل واسط. أعرابيّ بدويّ، فصيح اللّسان قدِم البصرة. من واسط، ومن شعراء أواخر المائة الثّانية. شعره معظمه رجز، وأغراض شعره لا تخرج من ذكر الفقر وتصاريفه يذكر ابن النّديم له ديوانًا بثلاثين ورقة ضاع أكثره.

(145) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 3، ص 76.

(146) اللِّوَى: الرّمل المتعرّج. راجع في ذلك: معجم الدّوحة التّاريخيّ. مادّة (ل.و.ي).

(147) هَذَأَهُ بالسَّيْف ونحوه: قطعه قطعا سريعًا. راجع في ذلك: نفسه. مادّة (ه.ذ.ء).

(148) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 3، ص 29.

(149) فاجر، إيفالد، أسس الشّعر العربيّ الكلاسيكيّ والشّعر العربيّ القديم، ص 184.

(150) فاجر، إيفالد، أسس الشّعر العربيّ الكلاسيكيّ والشّعر العربيّ القديم، ص 184.

(151) فاجر، إيفالد، أسس الشّعر العربيّ الكلاسيكيّ والشّعر العربيّ القديم، ص 149.

(152) فاجر، إيفالد، أسس الشّعر العربيّ الكلاسيكيّ والشّعر العربيّ القديم، ص 149.

(153) خالد بن يزيد البغداديّ أبو الهيثم: شاعر غزل، من الكتّاب. أصله من خراسان، ومولده بها. عاش وتوفّي في بغداد. كان أحد كتّاب الجيش في أيّام المعتصم العبّاسيّ.

(154) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 2، ص 191.

أيضا في نصوص المحدثين من الشّعراء إلى ضرب من السّخرية من الطّلل والدّيار، والشّواهد على ذلك كثيرة، منها ما عبَّر عنه أبو المخَفَّف[155] حين نبذ وصف الطّلل واستعادة صور الدّيار والقفار، هازئا بنمطيّة القصيدة العموديّة، أو كما يقول [من المجتثّ][156]:

دَعْ عَنْكَ رَسْمَ الدِّيَارِ وَدَعْ صِفَاتِ القِفَارِ

هكذا عبّر الشّعراء عن ضيقهم بذكر الطّلل بكلّ معالمه الدّارسة الصّامتة النّاطقة في آن، ربّما لأنّهم وجدوه رمز الاستقرار والثّبات، بينما حاولوا في شعرهم أن يعبّروا عن وجه آخر خفيّ وأن يرسموا لنا صورة مضمَرة تكشف عن تردّد الأفضية وتأرجحها بين الحلّ، والترّحال، والألفة والوِحشة. والظّاهر أنّ «الحِلّ عمارة وإقامة واستقرار وبناء وازدهار، أمّا الترّحال فحركة وتنقّل وسعيٌ دائبٌ وراء القُوت والمرعَى»[157]. ويقدَّم الظّاعن عادة على أنّه متجذِّر في المكان، وقد توثّقت وشائجه به، بينما يُوسَم المرتحِلُ ويُصوَّر على أنّه كائنٌ غريب متسكِّع صُعلوك، «لقيطٌ لا جذور له»[158]. ولئنْ تقصَّد الشّاعر العربيّ القديم في معرض وصف رحلته، ذكر الأفضية التي مرّ بها من رياض ومراعي ومدن عامرة، فقد ساعده ذلك على تكثيف مفهوم الحركة، الدّالة على قيم التبدّل والتحوّل، وتعيين أفضية الألفة التي تقابل أفضية الوحشة، وتحاورِها. فكيف حضرت تلك الأفضية في نماذج من شعر المقلّين؟ وما هي صورها الطّريفة فيما تأمّلناه من تلك النّصوص الشّعريّة؟

في أفضية الألفة والوحشة:

تتردّد نصوص شعراء مدوّنتنا بين الحديث عن أفضية الألفة وذكْر أفضية الوحشة. وإذا كانت أفضية الألفة تعبّرُ عن الوئام والاتّصال، فأفضية الوحشة على النّقيض منها تكرّس صور الانبتات والغربة التي شكّلت محورا أساسيّا في شعر المقلّين، شعر الهامش يُقابل شعر المركز ويسائله ويرجّ صمته.

ومن صور أفضية الألفة رسم جمال المدن والتغنّي بطيب العيش فيها، وذكر أمجادها وماضيها. ومن هذا الضّرب الشّعريّ ما ظفرنا به في شعر عائشة العثمانيّة[159] من رسم لماضي مكّة ومجدها، قرية كانت مأوى الضّعيف والغريب والقريب، آمنة ليلا نهارا [من المتقارب][160]:

فَيَا قَرْيَةً كُنْتِ مَأْوَى الضَّعِيفِ إِذَا لَمْ يَجِدْ فِي سِوَاهَا قَرَارَا
وَمَأْوَى الغَرِيبِ وَمَأْوَى القَرِيبِ وَآمِنَةٌ لَيْلَهَا والنَّهَارَا

وقريبا من وصف مكّة وأهل البيت، ما جاء في شعر جَحْظَة البرمَكيّ (توفّي 324 هـ)[161]، وقد عمد فيه إلى تضمين بيت الفرزدق (توفّي 114 هـ) من تصوير البطحاء وبيت الكعبة وما جاوَر الحرم من الأرض. والبطحاءُ هي كلّ موضع متّسع. وهو موضع بعينه قريب من ذي قار. وبطحاء مكّة وأبطحها، وكذلك بطحاء ذي الحُليفة[162]. يقول في ذلك الشّاعر [من البسيط][163]:

لَسْتُ «الذِي تَعْرِفُ البَطْحَاءُ وَطْأَتَهُ وَالبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالحِلُّ وَالحَرَمُ»[164]
أَنَا الذِي حُبُّ أَهْلِ البَيْتِ أَفْقَرَهُ فالعَدْلُ مُسْتَعْبِرٌ[165] والجَوْرُ مُبْتَسِمُ

ومن صور التغنّي بالأوطان، أفضيةً للألفة والوصال، ما نمّ عنه شعر عليّ بن أبي طالب الأعمى[166]، وهو يرسُم وجه دار الخلافة ببغداد، مستقرّ المنابر ورمز السّلطتيْن الدّينيّة والسّياسيّة. إنّها أرضٌ عابقة بالورد والمسك وبخور المجامر. يقول فيها [من الطّويل][167]:

أَ بَغْدَادُ يَا دَارَ المُلُوكِ وَمُجْتَنَى صُنُوفِ المُنَى يَا مُسْتَقَرَّ المَنَابِرِ
تُرَشُّ بِمَاءِ المِسْكِ وَالوَرْدِ أَرْضُهَا تَفُوحُ بِهَا مِنْ بَعْدُ رِيحُ المجَامِرِ

ومن المدن الأخرى التي يتغنّى بجمالها الشّعراء، شعر لربيعة الرّقي خصّ به حسن الرِقّة البيضاء[168]، هذه المدينة المشهورة على الفُرات. يقول في ذكر مفاتنها كما لو أنّها المرأة الجميلة [من الرّمل][169]:

حَبَّذَا الرَّقَّةُ دَارًا وَبَلَدْ بَلَدٌ سَاكِنُهُ مِمَّنْ تَوَدْ
مَا رَأَيْنَا بَلْدَةً تَعْدِلُهَا لاَ وَلاَ أَخْبَرَنَا عَنْهَا أَحَدْ

(155) عاذر بن شاكر أبو المخفّف: شاعر عبّاسيّ، من ظرفاء بغداد في أيّام المأمون. اقتصر في شعره على وصف الخبز والتّشوّق إلى الرّغيف السّاخن، وقضّى حياته متسوّلا، على حمار ومعه جاريته تغنّي بشعره، وهما يدوران في أسواق بغداد وأزقّتها والنّاس تدعوه إلى بيوتها فيعتذر، لأنّه لم يكن يرضى بالصّدقة عليه إلاّ الرّغيف أو ثمنه.

(156) النجّار، إبراهيم. سابق. ج 3، ص 349.

(157) بنعبد العالي، عبد السّلام، ثقافة الأذن وثقافة العين، طبعة 2، دار توبقال للنّشر، الدّار البيضاء، 2008. ص 22.

(158) بنعبد العالي، عبد السّلام، ثقافة الأذن وثقافة العين، ص 23.

(159) عائشة العثمانيّة: شاعرة من مكّة مجهولة. كانت حيّة في عهد الحجّاج بن يوسف وحصاره لمكّة.

(160) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 4، ص 203.

(161) أحمد بن جعفر بن موسى بن الوزير يحيى بن خالد بن برمك، أبو الحسن: نديم أديب مغنّ، من بقايا البرامكة، من أهل بغداد. كان في عينيه نتوء فلقبّه ابن المعتزّ بجحظة، فلزمه اللّقب. وكان كثير الرّواية للأخبار، متصرّفا في فنون من العلم كاللّغة والنّجوم. مليح الشّعر، حاضر النّادرة، عارفا بالموسيقى، لم يكنْ أحد يتقدّمه في صناعة الغناء. نادم ابن المعتزّ والمعتمد العباسيّين، وصنّف كتبا قليلة منها (المشاهدات) في الأخبار واللّطائف و(ما صحّ ممّا جربّه علماء النّجوم)، و(أخبار الطّنبوريّين)، وله ديوان شعر.

(162) البطحاءُ: أصله المسيل الواسعُ فيه دقائق الحصى، وهو التّلعة والوادي. والبطحاء هي كلّ موضع متّسع. وهي أيضا موضع بعينه قريب من ذي قار. وبطحاء مكّة وأبطحها.. وكذلك بطحاء ذي الحليفة. راجع في ذلك: الحمويّ، ياقوت. معجم البلدان. طبعة 1، دار صادر، بيروت، 1993، ج 1، ص 446.

(163) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 3، ص 69.

(164) الفرزدق، ديوان الفرزدق، شرحه وضبطه وقدّم له: فاعور علي، طبعة 1، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1987. ص 511.

(165) المستَعْبِرُ: الذي يبكي فَتَسيلُ عَبرته من حزن ونحوه. راجع في ذلك: معجم الدّوحة التّاريخيّ. مادّة (ع.ب.ر).

(166) عليّ بن أبي طالب الأعمى: شاعر عبّاسيّ، عاش أواخر القرن الثّاني. يعدّ من الشّعراء المنسيّين. لم يصلنا سوى اسمه ونسبته وبعض شعره.

(167) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 4، ص 146.

(168) الرّقّة: «الأرض الذي ينضُب عنها الماء، جمعها رِقاق: مدينة مشهورة على الفرات من جانبها الشّرقيّ، بينها وبين حرّان ثلاثة أيّام من بلاد الجزيرة». راجع في ذلك: ابن عبد الحقّ، صفيّ الدّين عبد المؤمن البغداديّ (توفّي 739 هـ). مراصد الاطّلاع على أسماء الأمكنة والبقاع (مختصر معجم البلدان لياقوت). تحقيق وتعليق: البجاوي علي محمّد، طبعة 1، دار المعرفة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، 1954. ص 626.

(169) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 2، ص ص 287- 288.

إِنَّهَـــا بَرِيَّـــةٌ بَحْـــــــرِيَّةٌ سُـــورُهَا بَـــحْرٌ وَسُـورٌ فِي الجَـدَدْ
لَمْ تُضَـمَّنْ بَلْـدَةٌ مَا ضُـــمِّنَتْ مِـــنْ جَـــمَالٍ فِي قُرَيْـــشٍ وَأَسَدْ

وفي نماذج شعريّة مماثلة يُشيدُ الشّعراء بالمواضع الجميلة، على نحو ما وصف به ابن أبي كريمة الشّاعر[170] تلك البقعة الرّائقة متدرّجا في وصفه من العامّ إلى الخاصّ ومن الكلّ إلى الجزء. وكان ابن أبي كريمة الشّاعر يميل في قصائده «عن المدينة وثقافة الحضر لينغرسَ بك في صميم البادية [..] بما أفرّته ثقافة الصّـــحراء»[171]. ولكنّه يعود إلى المدينة فنقف معه على وجهها الجديد، ونلمس صورة ذاك الفتى الظّريف «من أهل المروءات والأدب»[172]. يقول في هذا السّياق [من البسيط][173]:

وَبُقْـعَةٍ قَـدْ أَجَـالَ الطَّـرْفَ نُزْهَتَـــهُ حَتَّـــى تَخَيَّـــرَهَا مِنْ مَنْبَـتِ الْقُـطْنِ
سَهْـلِيَّةٌ النَّجْدِ لاَ خَفْـضٍ ولاَ شَرَفٍ شَيْخٌ مِنَ الفُرْسِ مَطْبُوعٌ عَلَى الفِطَنِ

ويحفل الشّـعر الذي تأمّلناه بأفضية الألفة والجمال، على غرار ما صوّر به محمّد بن أبي أميّة[174]، وهو من الكتّاب الظّرفاء في أيّام المأمون والمعتصـم جِنانا حين قال في ذكرها ورسمها مُســتخدما معجم الطّبيعة بنرجســها وخضرتها، وكامل أبهتها [من الخفيف][175]:

فِي جِنَانٍ كَأَنَّـمَا نُشِرَتْ فَـوْ قَ ثَرَاهَـــا حَرِيـــرَةٌ خَـــضْرَاءُ
أَعْيُـنُ النَّرْجَـسِ الحَـنِيِّ نُجُـومٌ وَاخْضِـرَارُ الرِّيَـاضِ فِيـهَا سَـمَاءُ

وحين يألفُ الشّـاعر المكان يدعو له بالدّعاء الحسـن من قبيل ما رأيناه في شعر خلف الأحمر (توفّي 180 ه)[176]، حين دعا بالسّقيا لأمكنة الأحبّة وتضـرّع من الله أنْ يجعل موطن سـكناهم غيثا ويحيله مِسْـكا فوّاحا طيّب الرّائحة، أو كما يقول [من الكامل][177]:

فَسَـقَى بِـلاَدًا هُـنَّ سَـاكِنُـهَا غَيْـثٌ رُكَـامُ المِسْـكِ يَرْفَـعُهُ

ولئنْ تعدّدت الأمثلة في المدوّنة التي نظرنا فيها بشـعر دالّ على أفضـية الألفة، فقد كانت في المقابل أيضا ثريّة بدلالات الوحشة، والانبتات والغربة والفَقْر. لقد عبّر الشّـعراء عن وحشـتهم وتوقهم إلى أمكنة القرب، ومن هؤلاء ما أفصـحَ عنه ربيعة الرّقي الشّـاعر من أماني الوصـال في المكان، مُسـتخدما لذلك لفظ (الصّـدد). والصّـدد في اللّسـان النّاحية والمكان القريب، أو كما يقول [من البسيط][178]:

فِي كُلِّ يَوْمٍ لَنَا إِلْمَـامَةٌ بِكُـمُ وَلَيْـتَ دَارُكِ مِـنْ دَارِي عَلَى صَـدَدِ

ولعلّ من أنصع الشّواهد الدّالة على معنى الوحشة في المكان، ما ضفرنا به في شعر المخزوميّ (توفّي 230 هـــ)، حين عبّر بجلاء عن وحشة المكان، بعد أنْ فقد جوّ الطّرب، وانقلبت حاله بكاء ودمعا حارقا يسكبه ويسفحه غِزارا في ذُرى المكان [من البسيط][179]:

لَـمْ يَبْـقَ لِي لَـذَّةٌ مِـنْ طَرْبَةٍ بَـدَدِ وَلاَ المَنَـازِلُ مِنْ خَيْـفٍ[180] لاَ سَنَـــد
وَاسْتَمْـطَرَتْ عَبَرَاتُ العَيْـنِ مَنْـزِلَةً لَمْ يَبْـقَ مِنْـهَا سِـوَى الآرِيِّ[181] وَالوَتَدِ
ومَا بُكَاؤُكَ دَارًا لاَ أَنِيـسَ بِـهَا إِلاَّ الخَوَاضِبُ[182] مِنْ حِيطَانِهَا الرَّبَدِ[183]

ويعبّر الشّـعراء في المقابل عن أفضـية الوِحشـة بصـور تختلط بعالم الجنّ والمخاوف، ومثاله ما ركبه الأعشـى الكبير (توفّي حوالي 629 م)[184] لما قال عن بلدته وقد صارت موحشة كظهر التّرس [من البسيط][185]:

وَبَلْـدَةٍ مِثْلَ ظَهْرِ التُّـرْسِ[186] مُوحِـشَةٌ[187] لِلجِنِّ باللَّيْلِ فِي حَافَاتِهَا زَجَلُ[188]

وما إنْ يُصِبْ الدّيار خَطْب، ويُضرّبها بلاء حتّى يبكي الشّاعر حالها ويُعدّد أهوالها. ومن ألوان ذلك ما أتاه الشّـاعر ابن مطير (توفّي 170 هـــ) حين استعاد ما درَس من ديار الحبيبة متغزّلا باكيا حال الدّيار وقد صارت قَفْرا تنعِق بها الغربان، فأضحتْ رياضها رياض حزن. يقول في هذا المنحى [من البسيط][189]:

(170) ابن أبي كريمة: من مرو بخراسـان. عدّه الجاحظ من بخلاء مرو. وهو من الشّـعراء «المنسـيّين الذين كاد يمّحي ذكرهم في كتب الطّبقات والجماميع». زاوج في شـعره بين «نهج الأعراب ونمط المحدثين». راجع: النجّار، إبراهيم. نفسه. ج 1، ص ص 123- 124.

(171) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 1، ص 124.

(172) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 1، ص 124.

(173) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 1، ص 132.

(174) ولد محمّد بن أميّة بن أبي أميّة في مدينة البصرة، وغادر مسقط رأسه في فترة من فترات حياته إلى بغداد عاصمة الخلافة العباسيّة، وهناك اشتهر شاعرا في خلافة هارون الرّشيد، وتوطّدت علاقته بأخيه إبراهيم بن المهديّ. أصبح محمّد بن أميّة مشهورا في الوسط الأدبيّ، وكانت تجمعه عداوة مع الفضـل الرّقاشـيّ، وهو موضـوع بعض قصـائده الهجائيّة. لا يُعرَف على وجه الدقّة تاريخ وفاته، ويُرجّح مؤرّخو الأدب العربيّ أنّ وفاته كانت قرابة 230 هـــ. راجع في ذلك: فرّوخ، عمر. تاريخ الأدب العربيّ: الأعصر العباسيّة. طبعة 4، دار العلم للملايين، بيروت، 1981. ص 243.

(175) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 2، ص 335.

(176) أبو مُحْرز، خلف بن حيّان الأحمر: عالم من كبار علماء البصـرة. نحويّ لغويّ راوية. كان هو وأبوه مؤلّبين لبلال بن أبي موسـى الأشـعريّ، فأعتقهما، لم يُعرف عام ولادته، أمّا وفاته فكانت في البصرة.

(177) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 1، ص 80.

(178) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 2، ص 287.

(179) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 1، ص 247.

(180) الخَيْفُ: ما انحدر عن غِلَظِ الجبل وارتفع عن مسـيل الماء. راجع في ذلك: معجم الدّوحة التّاريخيّ. مادّة (خ.ي.ف).

(181) الآريُّ: الحَبْلُ تُشَدُّ به الدّابة في محبسها. راجع في ذلك: نفسه. مادّة (ء.ر.ي).

(182) الخَاضِبُ الدّرِعُ ونحوها: الملطّخُهَا بالدّم. راجع في ذلك: نفسه. مادّة (خ.ض.ب).

(183) الرَّبَدُ: الإقامة في المكان. راجع في ذلك: نفسه. مادّة (ر.ب.د).

(184) ميمون بن قيس بن جندل، أبو بصير، المعروف بأعشى قيس، ويقال له أعشى بكر بن وائل، والأعشـى الكبير: من شـعراء الطّبقة الأولى في الجاهليّة، وأحد أصـحاب المعلّقات. من بني قيس بن ثعلبة الوائليّ. كان كثير الوفود على الملوك من العرب والفرس. غزير الشّعر، يسلُك فيه كلّ مسلك، وليس أحد ممّن عرف قبله أكثر شعرا منه. وكان يُغنّي بشعره، فسُمّي صَنّاجة العرب.

(185) أدونيس. سابق. ج 1، ص 264.

(186) التُّرسُ: قطعة مدوَّرة من الخشب ونحوه مجدّبة الظّهر لاتّقاء ضربات السّلاح. وتُرْسُ الأرض: القاعُ المستديرُ الأملسُ الغليظُ. راجع في ذلك: معجم الدّوحة التّاريخيّ. مادّة (ت.ر.س).

(187) الموحِشُ من الدِّيار: المقفِرُ الخالي من النَّاسِ. راجع في ذلك: نفسه. مادّة (و.ح.ش).

(188) الزَّجَلُ: الصّـوت المرتفع. وهو الغناء بتطريب ورفع صـوت. راجع في ذلك: نفسـه.مادّة (ز.ج.ل).

(189) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 1، ص 250.

سَقَى سَقَى اللهُ جيرَانًا لَنَا ظَعَنُوا لَمَّا دَنَا مِنْ رِيَاضِ الحزنِ تَهْييجُ

والمعنى ذاته يركبه الشّاعر ابن مطير ويُثري دلالاته، فينقل لنا مشاهد حيّة عن معالم المنازل الدّارسة، وقد سكنتها الوحوش بعد أنْ هاجرها سكّانها وتركوها خلاء. يقول في هذا الباب [من البسيط](190):

تِلْكُم دِيَارُكُمُ بالقَفّ(191) دَارِسَةً(192) يَسْتَنُّ فِيهَا عَجَاجُ الصَّيْفِ والعَوَجُ
قَفْرًا خَلاَءَ المغَانِي(193) مَا يظَلُّ بِهَا إلاَّ الظِّبَاءُ وَغِرْبَانٌ مَشَاحِيجُ(194)
فِيهَا أَوَارٍ وآثَارٌ بِعَرْصَتِهَا وَمَاثِلٌ نَاحِلٌ فِي الدَّارِ مشْجُوجُ(195)

هكذا يبدو واضحا من خلال الأمثلة التي ذكرنا أنّ تصوير الأماكن القفر الخلاء، ثيمة متردّدة في شعرهم، حاضرة بقوّة في مدوّنتهم. والقَفْر من الأرض: الخالية من النّاس والماء والنّبات، وأمّا القَفْر من الدّيار، فالخالية من أهلها. وقد عبّد الشّاعر الفِنْد الزِّمّاني البكريّ (توفّي قبل 100 ق. هـ) عن هذا المعنى ومَايَز دلالاته المعجميّة حين أنشد [من الخفيف](196):

وَتَرَكْنَا دِيَارَ تَغْلَبَ قَفْرًا وَكَسَرْنَا مِنَ العُوَاةِ الجَنَاحَا

وإلى هذا المعنى القريب أيضا مَال الشّاعر جَحْظَة البرمَكيّ، فرسَم لنا صورة منزله وقد أضحى نعشا يُذكي وحشة الأموات رمز الموت الجاثم، والبلاء المستطير. إنّه المسكن القبر بلا أنيس ولا رفيق. يقول في رسم صورة بيته ساخرا سخرية سوداء مريرة تقطر ألما [من السّريع](197):

يَا طَلْعَةَ النَّعْشِ وَيَا مَنْزِلاً أَقْفَرَ مِنْ بَعْدِ الأنِيسِ الحَلُول

وفي نماذج شعريّة أخرى يصِمُ أبو الخطّاب البهدليّ(198) دار الخليفة موسى الهادِي، فيجعلها دار برد وقرٍّ تسفّها الرّيح الصّرصر، كناية عن القَفْر والخلاء والوحشة. إنّها دار هُجنة وخراب لسوء صنيع الخليفة الذي ما فتئ يزدري الشّعر ويحجب الشّعراء عن داره، فانطبع صنيعه بالمكان ووصمه بالعار الأبديّ، وتداخل رسم الشخصيّة وخصالها الخُلقيّة بالبعد المكانيّ. يقول في هذا الموضع [من البسيط](199):

مَاذَا يَهيجُكَ مِنْ دَار بِمَحْنِيَّةٍ(200) كَالبَرْدِ غَيَّرَ مِنْهَا الجِدَّةَ العُصُرُ
عَفَّتْ مَعَارِفُهَا رِيحٌ تُنَسِّفُهَا(201) حتَّى كَأنَّ بَقَايَا رَسْمِهَا سُطُرُ
أَزْرَى بِجِدَّتِهَا بَعْدِي وَغَيَّرَهَا هَوْجُ الرِّيَاحِ التي تَغْدُو وَتَبْتَكِرُ

ومن الدّلالات اللّطيفة الأخرى التي تعترضنا في مدوّنات المختارات الشّعريّة التي وقفنا عندها صورة الدُّور والأفضية، وقد استحالت رغم بهرجها الخارجيّ الظّاهريّ إلى دور جُوع وقَفر لا شيء فيها غير البُؤس والضرّاء في عمقها الباطنيّ. يقول الشّاعر عليّ بن بسّام في هجاء دار أبي جعفر، واصما أبَاه بالبخل والشدّة، يُنفق على الحيطان تشيدا ويقتِّر على عياله في الرّزق تقتيرا، أو كما يقول [من البسيط](202):

بَنَى أَبُو جَعْفَرٍ دَارًا فَشَيَّدَهَا وَمِثْلُهُ لِخِيَارِ الدُّور بَنَّاءُ
فَالجُوعُ دَاخِلَهَا والذُّلُّ خَارِجَهَا وَفي جَوَانِبِهَا بُؤْسٌ وَضَرَّاءُ
مَا يَنْفَعُ الدَّارَ مِنْ تَشْيِيدِ حَائِطِهَا وَلَيْسَ دَاخِلَهَا خُبْزٌ وَلاَ مَاءُ

ولهذا يعبّر الشّاعر عليّ بن بسّام عن استغرابه من دار والده، فينبري له فاضحا، حين يُشهِّر بالدّار ويفضح بُخْل صاحبها، مُبرزا البعد المكانيّ والتّباعد الفكريّ لمالِكها، يقول في ذلك فاضحا [من السّريع](203):

دَارُ أَبِي جَعْفَرَ مَفْرُوشَةٌ مَا شِئْتَ مِنْ بُسُطٍ وَأَسْمَاطِ(204)
وَبُعْدُ مَا بَيْنَكَ مِنْ خُبْزِهِ كَبُعْدِ بَلْخٍ(205) مِنْ سُمَيْسَاطِ(206)

ومن صور الدّار كناية عن البخل، ما تتبّعناه في شعر إسماعيل بن عمّار (توفّي في حدود 175 هـ)(207). لقد سخِر الشّاعر من دار جاره عثمان درباس، وكان بخيلا لا يفتح أبوابه. لقد جعل الجارُ داره منيعة كأنّها معلّقة

(190) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 1، ص 250.

(191) القَفُّ: ما ارتفعَ من مُتُون الأرض وصلُبت حجارته. راجع في ذلك: معجم الدّوحة التّاريخيّ. مادّة (ق.ف.ف).

(192) الدّارِس من الرّسوم ونحوها: المِمَّحِي الذّاهب أثرُه. راجع في ذلك: نفسه. مادّة (د.ر.س).

(193) المغْنَى: مكان الإقامة. يقول تأبّط شرّا (توفّي نحو 50 ق. هـ) في هذا المعنى:

يَبِيتُ بِمَغْنَى الوَحْشِ حتَّى أَلِفْنَهُ ♠ وَيُصْبِحُ لاَ يَحْمِي لَهَا الدَّهْرُ مَرْتَعَا

راجع في ذلك: تأبّط شرّا. ديوان تأبّط شرّا. جمع وتحقيق وشرح: شاكر علي ذو الفقار، طبعة 1، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، 1984. ص 115.

(194) المشاحيجُ: حصن في معارف ضمار باليمن. راجع في ذلك: ابن عبد الحقّ، صفيّ الدّين عبد المؤمن البغداديّ. سابق. ج 3، ص 1273.

(195) المشْجُوجُ من الأوتادِ: المشعَّثُ لكثرة الضَّرب عليه بالحجر ونحوه. راجع في ذلك: معجم الدّوحة التّاريخيّ. مادّة (ش.ج.ج).

(196) الزِّمّاني، الفِنْد، شعر الفِنْد الزِّمّاني، جمع وتحقيق: الضّامن حاتم صالح، مجلّة المجمع العلميّ العراقيّ، (بغداد)، المجلّد 37، العدد 4، كانون الأوّل 1986. ص 9.

(197) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 3، ص 68.

(198) أبو الخطّاب البهدليّ: شاعر من تميم عاش بالبصرة. كان حيّا أيّام الرّشيد. وكان يجمع فصاحة الأعراب وحساسيّة أهل المدينة.

(199) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 1، ص 161.

(200) المحْنِيَّةُ: منعطف الوادي ونحوه، حيث ينعرج منخفضا عن السَّفْح. راجع في ذلك: معجم الدّوحة التّاريخيّ. مادّة (ح.ن.ي).

(201) نَسَفَتِ الرِّيحُ التُّرابَ: حرّكته وأزالته عن موضعه. يقول عبد الله بن هُبَّة المرداسيّ السُّلَميّ (توفّي نحو 270 هـ) في هذا المعنى:

هَلْ تَعْرِفُ الدَّارَ بِالجَهْرَاءِ قَاوِيَةً ♠ بَيْنَ البِحَارِ وَبَيْنَ الهَضْبِ ذِي الحُمَمِ؟
جَرَّتْ بِهَا الرِّيحُ أَذْيَالاً تُنَسِّفُهَا ♠ بِحَاصِبٍ مِنْ تُرَابِ المورِ مُلْتَحِمِ

انظر: الهَجَرِيّ، أبو عليّ. التّعليقات والنّوادر: دراسة ومختارات، ترتيب: الجاسر حمد، طبعة 1، دار اليمامة، الرّياض، 1992. ج 2، ص 713

(202) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 3، ص 159.

(203) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 3، ص 174.

(204) السِّمْطُ من الثّياب ونحوها: الرَّقيقُ الذي لا بطَانة له. راجع في ذلك: معجم الدّوحة التّاريخيّ. مادّة (س.م.ط).

(205) بَلخ: مدينة من قواعد خراسان. راجع: الحمويّ، ياقوت. سابق. ج 1، ص 713.

(206) سُمَيْسَاط: مدينة على شاطئ الفرات من طرف بلاد الرّوم. راجع: الحمويّ، ياقوت. نفسه. ج 3، ص ص 151- 152.

(207) إسماعيل بن عمّار: شاعر من قبيلة أسد، عاصر الدّولتيْن الأمويَّة والعبّاسيَّة. وجعل أكثر شعره في الهجاء، حتّى اشتهر بالهجاء اللاّذع. أهملته كتب التّراجم والطّبقات، ويكاد كتاب الأغاني ينفرد بما بقي من أشعاره وأخباره.

بالنّجم بين سلاليم وأمراس كناية عن مشقّة بلوغها والوصول إليها. وإمعانا في البُخل استغلّ درباس داره في تجويع أهله، مضيّقا عليهم مُمعِنا في حرمانهم. فما إنْ يخرج أهلّ المنزل من الدّار السّجن حتّى يخال النّاظر لهم أنّهم خرجوا من قعر أرماس، أيْ من قبور تذكّر بحكاية أهل كهف. صورة الدّار القبر إذنْ قريبة من صورة الإنسان القَفْر، بعد أنْ أقْفر قلبه من الكرم وجُرِّد من الرّحمة وأُشبع بالقسوة. يقول [من البسيط][208]:

جَارٌ لَهُ بَابُ سَاجٍ[209] مُغْلَقٌ أَبَدًا ... عَلَيْهِ مِنْ دَاخِلٍ حُرَّاسٌ أَحْرَاسِ

لَهُ بُنُونَ كَأَطْبَاءٍ مُعَلَّقَةٍ ... فِي بَطْنِ خِنْزِيرَةٍ فِي دَارِ كَنَّاسِ

إِنْ يُفْتَحِ البَابُ عَنْهُم بَعْدَ عَاشِرَةٍ ... تَظُنُّهُم خَرَجُوا مِنْ قَعْرِ أَرْمَاسِ[210]

فَلَيْتَ دَارَ ابْنِ دِرْبَاسٍ مُعَلَّقَةٌ ... بِالنَّجْمِ بَيْنَ سَلَالِيمٍ وَأَمْرَاسِ[211]

بيد أنّ تأمّل مدوّنة المختارات الشّعريّة التي اشتغلنا عليها تقودنا كذلك إلى الظّفر بأشعار طريفة، عبّر فيها أصحابها عن الأمكنة الموحشة، بعد أنْ طمست الحربُ معالمها وداست صفوها وبدّلت أمنَها خوفا وخرابا. يقول ناهض بن ثومة عقِب حرب دارت رحاها بين قبيلتين لم ينهها غير الصّلح بين الطّرفيْن [من الوافر][212]:

أَمِنْ طَلَلٍ بِأَخْطَبَ [213]أَبَدِيَّةٍ ... نَجَاءُ الوَبْلِ والدِّيَمُ الِنّضَاجُ

ومن نتائج الحرب التي تتبَّع الشّاعر ناهض بن ثومة دمارها، ما عاينه من آثار مسّت المكان فأهلكته وأبادت أركانه وقوّضته، كأنّها الرّحى ثابتة القطب تدور في المكان نفسه، تجرش الحجز وتفرُم البشر. إنّها بين ثبات ودوام وسكون، من جهة بما يدلّ على استمرار الحرب وتواصلها، وحركة عنيفة دلّت عليها صورة الرّحى تدور بما يشي عن أهوالها ويسِم فعلها وآثارها العديدة. يقول في هذا المعنى الشّعريّ مصوّرا أهوال الحرب وفعلها المدمّر على المكان [من الوافر][214]:

فَيَا اللهِ أَيُّ رَحًى رَحَانَا ... رُكُودَ[215] القُطْبِ ثَابِتَةَ المكَانِ

على أنّ الحوادث التي ألمت بالمدن وأصابتها بالخراب، عديدة نقلها لنا الشّعراء ووثّقوا شهادتهم الحيّة عنها. ومن ألوان ذلك ما وثّقه لنا أبو يعقوب الخُرَيْمي (توفّي 214 هـ) من حوادث رهيبة طالتْ بغوائلها بغداد بين سنة 196 وسنة 198 هـ، واصفا ما جرى في الفتنة بين الأمين (توفّي 198 هـ) والمأمون (توفّي 218 هـ)، مُقارنا حال المدينة قبل تلك الحوادث وبعدها، وقد اتّقدت نار الفتنة واستعرت عُرها وبان شرّها المستطير، بعد أنْ كانت بغداد جنّة الخُلد وموطن الألفة والأنس. يقول في ذلك [من المنسرح][216]:

جَنَّةُ خُلْدٍ وَدَارُ مَغْبَطَةٍ ... قَالَ مِنَ النَّائِبَاتِ وَائِرُهَا[217]

وَانْفَرَجَتْ بالنَّعِيمِ وَانْتَجَتْ ... فِيهَا بِلَذَّاتِهَا حَوَاضِرُهَا

فَالقَوْمُ مِنْهَا فِي رَوْضَةٍ أُنُفٍ ... أَشْرَقَ غِبَّ[218] القُطَارِ[219] زَاهِرُهَا

وعلى هذا القدر، أمكن للخُرَيْمي أنْ يصوِّر أثر الفتنة على ببغداد بعد أن تحوّلت منتزهاتها ورياضها الغنّاء، واستحالت أرضها الخضراء شوها. بغداد هذا الكائن الحيّ الذي له من الخلايا والمحاجر استوى ميتا ترتع فيه الكلاب السّائبة عاويَة، فينكِر الزّائر لما يُشاهد من رسمها وقد كان جميلا متناسقا في سالف الزّمن الغابر. يقول في تلطيف هذا المعنى وترقيقه [من المنسرح][220]:

فَإِنَّهَا أَصْبَحَتْ خَلَايَا مِنَ الإِنْسَـ ... ـانِ قَدْ أُدْمِيَتْ مَحَاجِرُهَا

قَفْرًا خَلَاءً تَعْوِي الكِلَابُ بِهَا ... يُنْكِرُ مِنْهَا الرُّسُومُ زَائِرُهَا

وغير بعيد عن أهوال الحروب والفتن التي تفتِك بالأفضية وتغيّر معالمها، ما وجدناه في شعر عائشة العثمانيّة، وهي تتفجّع من هول ما أصاب (أمّ القرى) مكّة من مكاره أثناء حصار الحجّاج بن يوسف (توفّي نحو 95 هـ) لها واصفة لوعة المكان. تقول عن تلك الأيّام وفي نقل صور الشّدائد [من المتقارب][221]:

أَرِقْتُ لِبَرْقٍ بَدَا ضَوْءُهُ ... بِمَكَّةَ يَبْدُو وَيَخْفَى مِرَارَا

فَبِتُّ أُمَلْمَلُ فِي مَضْجَعِي ... وَأَبْكِي جِهَارًا وَأَبْكِي سِرَارَا

لأُمِّ القُرَى خَرِبَتْ بالحَرِيقِ ... وَمَاتَ بِهَا النَّاسُ سَيْفًا وَنَارَا

وقد تُصيب أهوال الطّبيعة الأوطان، فتغيّر معالمها، وتُربِك انتظامها. ومن نوائب الدّهر ما تعرّض له حصن شيراز بسوريا سنة 551 هـ، حين دكّه

(208) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 3، ص 198.

(209) السّاج: خشبٌ مربّع يُجلب من الهند. راجع في ذلك: معجم الدّوحة التّاريخيّ. مادّة (س.ي.ج).

(210) الرَّمْسُ: القبْرُ المسَوَّى مع الأرض. والرَّمْسُ: التّرابُ الذي يُغطَّى به. راجع في ذلك: نفسه. مادّة (ر.م.س).

(211) المرَسُ: الحبل. المرْسُ: الشدّة والمشقّة. راجع في ذلك: نفسه. مادّة (م.ر.س).

(212) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 1، ص 174.

(213) أخطب: جبل بنجد. راجع: الحمويّ، ياقوت. سابق. ج 1، ص 164.

(214) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 1، ص 186.

(215) الرُّكُودُ من الأشياء: الشّديد الثّبات والسّكون. والرُّكود بالمكان: الإقامة به. راجع في ذلك: معجم الدّوحة التّاريخيّ. مادّة (ر.ك.د).

(216) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 4، ص 160.

(217) الوَأْرُ: إلقاءُ الشرّ على الغير. والوَأْرُ: الإخافة والتّرويع. وأُرُ النّار: إشعالها وإيقادها. راجع: نفسه. مادّة (و.ء.ر).

(218) الغُبُّ من الأرض: ما كان غامِضا ومنخفضا منها. راجع في ذلك: نفسه. مادّة (غ.ب.ب).

(219) القُطارُ: المنتصب الرّأس. والقُطار: السُّمُّ المَقطِرُ من أنياب الحيّة. راجع في ذلك: نفسه. مادّة (ق.ط.ر).

(220) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 4، ص 161.

(221) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 4، ص 203.

الزّلزال، وقوّضه. فهذا أسامة بن منقذ (توفّي نحو 488 هـ) ينذِب وطنه، ويبكي أهله وأرضه بحرقة، فيقول في وصف هذا الحدث الجلل مُستخدما التّضاد والجناس الصّوتي وإبدال حرف الصّاد بالباء في كلمتي (قُصُورهمْ)، و(قُبُورهمْ)، وما في هذا التّقابل من دلالة على الرّفع والخفض، وعلى العلويّ والسّفليّ وعلى الأمن والخطر والحياة تنسل من الموت [من البسيط][222]:

هَذِي قُصُورُهُمْ أَمْسَتْ قُبُورَهُمْ كَذَا كَانُوا بِهَا مِنْ قَبْلُ سُكَّانَا

وخلاصة الأمر ومنتهاه أنّ الأفضية التي تتبّعنا حضورها في مدوّنة المختارات التي اشتغلنا عليها، تنهض على زوجيْن متلازميْن يتردّدان بين أفضية الألفة وأفضية الوِحشَة، غير أنّ هذا التّقابل المكانيّ يسمح للمتأمّل في شعر العرب القديم، بالوقوع على معاني أخرى عديدة تُولي أفضية القرب والبُعد منها اهتماما. فما أفضية القُرب؟ وما أفضية البعد؟ وكيف تجلّت في نصوص الشّعراء المقلّين؟

في أفضية القرب والبُعد:

انتبه أرسطو مبكّرا إلى أنّ كلّ مكان «يستلزمُ وجود ترابط جهة الفوق والأسفل، وأنّ جميع العناصر الجوهريّة يُوجد لها مَيلٌ طبيعيّ تتحرّك به نحو أمكنتها الخاصّة بها أو تبقى فيها عندما تكون هناك، وقد تكون هذه الحركة إمّا إلى فوق أو أسفل، وهذا المكث يكون إمّا أعلى أو تحت»[223]. وما أمكنة الفوق والأسفل والأعلى والتّحت التي أشار إليها أرسطو في قوله السّابق سوى أمكنة السّماء كناية عن البعد وأمكنة الأرض كناية عن القرب. ويعكس القرب والبعد المكانيّ قُربا وبُعدا شعوريّا، يمكن أنْ ننظر من مسباره إلى الشّعر العربيّ القديم، نستنطقه ونعمّق أبعاده، باعتبار المكان «عامل تميّز وفرادة وموضعة محليّة»[224]. وقد وقفنا في نصوص الأشعار التي جُلنا فيها على ضرب من التقلّب بين أفضية القُرب والبُعد، فهذا الشّاعر الأحيْمر السّعديّ قدْ بدا قلِقا في المكان البعيد يكتوي بنار الأفضية في ظعنه وهجره، ليلُه طويل بالطّرق قصير بالمدن. ألم يقل في بيان حاله [من الطّويل][225]:

لَئِنْ طَالَ لَيْلِي بالعِرَاقِ لَرُبَّمَا أَتَى لِي لَيْلٌ بالشّآمِ قَصِيرُ

وليردم الأحيْمر السّعديّ هوّة البعد المكانيّ هذه، سعى أنْ يرتحل إلى مواضع القُرب، علّه يكفّ عن الدّوران الموجع، أو كما تغنّى صادحا [من الطّويل][226]:

لَقَدْ كُنْتُ ذَا قُرْبٍ فَأَصْبَحْتُ نَازِحًا بِكِرْمَانَ مُلْقًى بَيْنَهُنَّ أَدُورُ

إنّ تجربة الرّحيل الفرديّة، بكلّ معاناتها الذّاتيّة، تُبين عن تقابل صارخ بين المكان الفرديّ البعيد والمكان الجماعيّ القريب، وهو تعارض في عمقه يفضح تعارض النّظام الاجتماعيّ والاقتصاديّ والعاطفيّ، الذي «ينظُم العلاقات البشريّة جميعها»[227].

وقد أمكن للشّعراء أن يُشقّقوا معاني القرب والبعد، ذاكرين تجربتهم في المكان، وقد ضرّستهم صروف الدّهر التي أسهمت في تغيّر ملامح المكان فبدّله تبديلا. ولم يشُذّ ابن الدُّمَيْنة (توفّي نحو 180 هـ)[228] عن أضرابه من الشّعراء، إذْ وصف لنا في بائيّته الدّار وقد أبلاها الزّمن وأبعدها ورمها بالهجران وفِراق الأحبّة فأقصاها، وجعلها من أفضية البُعد أو كما يتغنّى بحزن [من الطّويل][229]:

أَمِنْكِ، أُمَيْمُ، الدَّارُ غَيَّرَهَا البِلَى وَهَيْفٌ [230]بِحَوْلاَنِ التُّرَابِ لَعُوبُ

دِيَارُ التِي هَاجَرْتُ عَصْرًا وللهَوَى يُلَبِّي إِلَيْهَا قَائِدٌ وَمُهِيبُ

واستكمالا لهذا المعنى وتأكيدا على هذه الثّنائيّة في الشّعر الدّال على المكان، ما يُقابلنا في شعر أبي الشّيص من تردّد بين أمكنة القرب وأمكنة البعد، فإذا المكان حمّال دلالات. يقول في هذا المجال [من المتقارب][231]:

وَمَنْ كَانَ فِي الحَيِّ بالأَمْسِ مِنْكَ قَرِيبَ المكَانِ بَعِيدُ المكَانِ

ولما كان هذا المكان القريب البعيد في ذات الآن، جاثما على صدر الشّاعر أبي الشّيص استحال ثقيلا على روحه مملاًّ مُميتا لحواسه وقلبه فمَلّ مكانه وعافته نفسه. وبهذا الاعتبار وشَى النصّ برعب الوجود وخواء الأمكنة وإنْ بدَتْ قريبة في المسافة. يقول في هذا المعنى [من المتقارب][232]

وَعَافَتْ عَيُوفُ وَأَتْرَابُهَا زُئُوِّي إِلَيْهَا وَمَلَّتْ مَكَانِي

على أنّ أفضية القرب والبعد، مُعلنة أيضا عن أفضية الوصال والهجر. ثنائيّة قويّة الدّلالة شديدة الحضور في النّصوص التي تأمّلناها. فهذا الشّاعر ماني

(222) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 4، ص 214.

(223) أرسطو، الفيزياء، ص 109.

(224) آوثوايت، وليم. قاموس بلاكويل ، فصل: «مكان»، ص 886.

(225) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 3، ص 28.

(226) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 3، ص 29.

(227) يوري، لوتمان، سيمياء الكون، ص 60.

(228) ابن الدُّمَيْنة، من شعراء العصر الأمويّ بجنوب الحجاز. شاعر بدويّ، من أرقّ النّاس شعرا. أكثر شعره في الغزل والنّسيب والفخر. وكان العبّاس بن الأحنف يطرب لشعره. وقد اختار له أبو تمّام في باب النّسيب من ديوان الحماسة ستّة مقاطع. اغتاله مصعب بن عمرو السّلولي، وهو عائد من الحجّ.

(229) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 2، ص 435.

(230) الهَيْفُ: الرّيحُ الحارّة التي تُيَبّسُ الزّرع وتُعَطّشُ النّاسَ. والهَيْفُ أيضا: ريح باردة تهبُّ من الجنوب. راجع في ذلك: معجم الدّوحة التّاريخيّ. مادّة (هـ.ي.ف).

(231) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 1، ص 211.

(232) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 1، ص 212.

الموسوس (توفّي 245 هـ) يبكي بُعدَ الدِّيار، ونأيَ الحبيبة وقد هجرته فانصرم حبل وصلها، أو كما يقول [من المنسرح][233]:

أَقْفَرَ مَغْنَى الدِّيَارِ بِالنَّجَفِ وَحُلْتُ عَمَّا عَهِدْتُ مِنْ لَطَفِ

وتصير مواضع المحبّ في شعر محمّد بن أبي أميّة مواضع هجر وغدر، ويرتقي المكان البعيد إلى مكان الاغتيال وموضع الأحزان، تأتيه من حيث يدري ولا يدري. يقول في هذا الباب [من الكامل][234]:

فِي كُلِّ مَوْضِعِ لَذَّةٍ حُزْنٌ يَغْتَالُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ أَدْرِي

ويُلطف الشّاعر نصر بن أحمد الخَبْزأرزيّ (توفّي 330 هـ)[235] القول في نصوص شعريّة تأمّلناها حين يرى أنّه في جنان الخُلد وفي مُنى مادام يعيش في أمكنة القرب أمكنة الحبّ والوصال، ولكنّه كالمفرد المبعَد عن جنّته تلك حالما تجافته الحبيبة، وأخرجه من جنانها إلى أفضية البُعد، حينها تضطرم ناره ويتّقد يأسا ويموت كمدا وضُرّا. فالخروج من أفضية القرب إلى أفضية البعد خروج آدم من جنّة الخلد بسبب الخطيئة، لفظ دالّ على رمز دينيّ وصورة متداولة في النّص القرآنيّ يستعيدها الشّاعر، ويحوّلها من مكامِنها الأولى إلى مواضع جديدة في شعره. يقول في هذا المعنى بإلطاف [من البسيط][236]:

خَطِيئَةٌ أَخْرَجَتْنِي مِنْ جِنَانِ مُنًى وَأَضْرَمَتْ فِيَّ نَارَ اليَأْسِ تَتَّقِدُ

وفي نماذج شعريّة مشابهة ينبري المكان القصيّ البعيد استعارة لطيفة عن بُعد الحبيبيْن وفراقهما، ويُلقِي البعد المكانيّ بكلكله وأستاره الكثيفة على البعد العاطفيّ، فتُحدِث هذه المقابلة معاني الاغتراب والفُرقة. ومن لطائف تلك الصّور، ما أتاه أبو شراعة (توفّي نحو 230 هـ) حين قال مصوّرا هذا البُعد بوجهيْه المجتمعين المتظافرين [من البسيط][237]:

حُبِّي لإِغْنَاءِ سَوَّارٍ يُجَشِّمُنِي خَوْضَ الدُّجَى وَاعْتِسَافَ[238] المَهْمَهِ البِيدِ

ويُذكي البعد المكانيّ في مواضع أخرى من نصوص مدوّنتنا من غربة الشّاعر وهو يعيش صراعا حادّا بين «حركة طرد إلى الخارج، وبين الرّغبة في الانكماش والتّقوقع في حركة جذب نحو الدّاخل»[239]، على نحو ما عبّر عنه ابن أبي كريمة وهو يمثِّلُ للمكان الغريب، ذاك المكان الدّاخليّ القريب الذي استحال مكانا خارجيّا بعيدا، وما في هذا الضّرب من التّخييل من دلالة على ثقل الفضاء، فضاء الهموم ومرتع الأحزان وقد تكالبت على الشّاعر المبعَد مكانا، المقصِيّ من ألفة الأمكنة القريبة، أو كما يصدح قائلا [من البسيط][240]:

قَدْ صِرْتُ نَهْبَ هُمُومٍ مُذْ أُصِبْتُ بِهِ حَلِيفَ حُزْنٍ مُبِينَ السرِّ والعَلَنِ

كأنِّي حِينَ آوَى اللَّيْلُ مَسْكَنَهُ سَلِيمُ أَرْبَدَ يُحْمَى لَذَّةَ الوَسَنِ

وتضيق في نصوص أخرى وجدناها بالشّاعر راشد بن إسحاق[241] الأمكنة، وتستحيل له الأفضية بعيدة غريبة غُربة روحه المكلَمة من تجربة عشق خائبة، ويصحبه الهمّ ويشاركه البكاء بكاءه، كأنّه يندب بعده المكانيّ ونأي أليفه عنه [من الطّويل][242]:

لِمُسْتَأْنِسٍ بِالهَمِّ فِي دَارِ غُرْبَةٍ غَرِيبِ الهَوَى بَاكٍ لِكُلِّ غَرِيبِ

وفي مدوّنة الشّعر التي عكفنا على تمثّلها نستلطف ما عبّر عنه أبو الشّيص من تغيّر وانقلاب حلّ بالمكان. فإذا كان ميسم الأفضية في الماضي القُرب والألفة والجمال والخضرة والرّبى وطيّب الهوى، يُحيِي النّفس ويُطربها، فإنّه قد استحال اليوم على نقيض ذلك فضاء بعيدا غائر البُعد خاوٍ خواء الرّوح. يقول في هذا المعنى بمزيد بيان [من الطّويل][243]:

وَعَهْدِي بِهَا غَنَّاءَ مُخْضَرَّةَ الرُّبَى يَطِيبُ الهَوَى فِيهَا ويُسْتَحْسَنُ اللَّعِبْ

وَفِي عَرَصَاتِ الحَيِّ أَضْبٍ كَأَنَّهَا مَوَائِدُ أَغْصَانٍ تَأَوَّدُ فِي كُثُبْ

ولعلّ من نافلة القول الجهر بأنّ دراسة المكان ليست بمعزل عن نظام «التّرميز العفويّ للمجال الاجتماعيّ»[244]، إذْ يعبِّر المكان ههنا عن علاقات «التّمايز»[245] أو عن علاقات «الإقصاء المتبادل»[246].

ومن أضرب الإقصاء المتبادل ما جمجم به أبو الشّمقمق (توفّي في حدود 190 هـ)[247] الشّاعر الصُّعلوك حين رسم خيبته من المكان المألوف،

---

(233) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 2، ص 243.

(234) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 2، ص 339.

(235) نصر بن أحمد البصريّ الخَبْزأرزيّ، نشأ بالبصرة، وخالط فيها شعراءها وأدباءها، ومدح ولاّتها وقضاتها، ثمّ انتقل إلى بغداد وأقام بها. عُرف بأنّه يخبز خُبز الأرز بمربد البصرة في دكّانه، فلقّب بحرفته. وكان يُنشد أشعاره للنّاس فيعجبون من حاله وشعره. راجع ترجمته ضمن: عناية، مصطفى حسين. نصر بن أحمد البصريّ الخَبْزأرزيّ: حياته وشعره. طبعة 1، عالم الكتب الحديث، إربد، 2015. ص ص 22– 24.

(236) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 2، ص 378.

(237) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 1، ص 143.

(238) اعْتِسَافُ الطَّرِيق ونحوه: قَطْعُهُ دون وجهة متوخّاة. راجع في ذلك: معجم الدّوحة التّاريخيّ. مادّة (ع.س.ف).

(239) يوري، لوتمان، سيمياء الكون، ص 60.

(240) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 1، ص 134.

(241) راشد بن إسحاق أبو حكيمة، من الشّعراء المنسيّين، المقدّمين في العقود الأولى من القرن الثّالث، استفرغ معظم شعره في التّألّم لما أصيب به من اللّعنات وهو ما زهّد الباحثين في جمع شعره.

(242) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 2، ص 304.

(243) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 1، ص 201.

(244) بورديو، بيير، بؤس العالم، ج 1، ص 240.

(245) بورديو، بيير، بؤس العالم ، ج 1، ص 240.

(246) بورديو، بيير، بؤس العالم، ج 1، ص 240.

(247) مروان بن محمّد: لُقّب بأبي الشّمقمق على ما يبدو لأنّه كان عظيم الأنف أهرت الشّدقين، منكر المنظر. وكان صُعلوكا متبرّما بالنّاس، وقد لزم بيته في أطمار مسحوقة. أطلق لسانه السَّلِطَ في الهجاء يقدّه عابثا من حظّه البائس وخيباته المتجدّدة، متلاعبا

وضمّن شعره مظاهر حرمانه من بيت يَأويه، فاستعاض عن البيت والقبّة والمنزل وسقف الدّار بفضاء أرحب وأوسع هو سماء وقطع سحاب تأويه وتحميه. ولهذا دلالة عميقة عن بؤس شاعر دحرته الحياة وأضنته فأضحى مُعدما فقيرا، يشعر بالحرمان ويحسُّ بالغُبن، أو كما يقول في تصوير حاله في مقطّعة مكتنزة المعاني [من الوافر][248]:

بَرَزْتُ مِنَ المَنَازِلِ والقِبَابِ ... فَلَمْ يَعْسُرْ عَلَى أَحَدٍ حِجَابِي

فَمَنْزِلِيَ الفَضَاءُ وسَقْفُ بَيْتِي ... سَمَاءُ اللهِ أَوْ قِطَعُ السَّحَابِ

ويتحوّل الحرمان من فضاء خاصّ وبيت بأبواب ونوافذ يأويه، إلى سخرية مُرّة مريرة يطلقها أبو الشّمقمق، حين يقول [من الوافر][249]:

فَأَنْتَ إِذَا أَرَدْتَ دَخَلْتَ بَيْتِي ... عَلَيَّ مُسَلِّمًا مِنْ غَيْرِ بَابِ

لأَنِّي لَمْ أَجِدْ مِصْرَاعَ بَابٍ ... يَكُونُ مِنَ السَّحَابِ إِلَى التُّرَابِ

على أنّ صور تحوّلات المكان في الشّعر العربيّ القديم، عديدة، فأمكنة القُرب وأمكنة الأمن، تقف في تقابل مع أمكنة البُعد وأمكنة الخوف والخطر. وهل أعمق من خطر الجوع، يدِبّ إلى البيت، والفقر يعشّش في أرجائه. ومن هذا النّوع ما صوّر به أبو الشَّمَقْمَقْ حال (بُيَيْتِه) وقد ذكره تصغيرا للدّلالة على التّحقير لا زاد فيه غير النحّالة تروده الجرذان وترتع به، ولا يحطّ عليه الذّباب ، بل يختار بدلا عنه الزّبالة، إنّه أشدّ قذارة من الزّبالة نفسها. وليس هذا المسلك في النّعت إلاّ من إمعان من الشّاعر في إبراز قبح المكان والتّشديد على تحقيره. يقول [من الخفيف][250]:

فِي بُيَيْتٍ مِنَ الغَضَارَةِ[251] قَفْرٍ ... لَيْسَ فِيهِ إِلاَّ النَّوَى والنُّحَالَهْ

عَطَّلَتْهُ الجُرْذَانُ مِنْ قِلَّةِ الخَيْـ ... ـرِ وَطَارَ الذُّبَابُ نَحْوَ الزُّبَالَهْ

ولئنْ كان الإنسان يتموضع في المكان وينحسر فيه «فيشغل حيّزا»[252] معيّنا به، فقد يضيق عليه المكان، ويستحيل مَكانَ تبعيدٍ لا مكانَ تقريبٍ. هكذا هو حال دار أبي الشّمقمق، لما تضاءل بيته المقفر الخاوي من كلّ مصادر الأمن وما قد يحمي الإنسان من غائلة الجوع. وتواصلا مع المعاني التي أضفاها أبو الشّمقمق على المكان البعيد وتصوير حال داره الفقيرة والمقفرة، نجد نصوصا مثيلة دالّة لأبي فرعَوْن السَّاسِي، وفيها يصوّر كذلك ما أصاب بيته من جوع، ساخرا من أمره بعد أنْ حلّ أبُو عَمرة رمز الجوع والشرّ والشُّؤم به، حتّى نسجت العنكبوت حبالا على قِدْره بسبب التّرك وعدم الاستعمال. يقول [من الرّجز][253]:

أَنَا أَبُو فِرْعَوْنَ فَاعْرَفْ كُنْيَتِي ... حَلَّ أَبُو عَمْرَةَ وَسَطَ حُجْرَتِي

وَحَلَّ نَسْجُ العَنْكَبُوتِ بُرْمَتِي ... أَعْشَبَ تَنُّورِي وَقَلَّتْ حِنْطَتِي

ولم يتورّع أبو فرعَوْن السَّاسِي من تدقيق هذا المعنى الشّعريّ، لما عبّر عن شدّة جوع أطفاله، وغالَى في بيان خلوّ داره ممّا يحفظ أمن عياله. ولم يجد أفضل من صورة الخنافس في جحرها تعبيرا عن حال عياله وقد التصقوا ببعضهم التصاقا يبحثون عن بعض الدّفء، جاعلا من مواضع البعد قريبة من مواضع التّصغير والتّحقير. يقول في ذلك [من الرّجز][254]:

جَاءَهُمُ البَرْدُ وَهُمْ بِشَرِّ ... بِغَيْرِ قُطْفٍ وَبِغَيْرِ دُثُرِ

حَتَّى إِذَا لاَحَ عَمُودُ الفَجْرِ ... وَلاَحَتْ الشَّمْسُ خَرَجْتُ أَسْرِي

عَنْهُمْ وَحَلُّوا بِأُصُولِ الجُدْرِ ... كَأَنَّهُمْ خَنَافِسٌ فِي جُحْرِ

وفي رواية ابن المعتزّ (توفّي 296 هـ) صاحب طبقات الشّعراء لهذا البيت تخريج لطيف، استخدم فيه لفظ (المنحَجِر)، بمعنى الممتنع عليه البروز كالطّير ونحوه لا يقدر على الظّهور بالعشّ. يقول في روايته تلك، وما لها من دلالة على معاني الفقر القاسي [من الرّجز][255]:

وَبَعْضُهُمْ مُلْتَصِقٌ بِصَدْرِي ... وبَعْضُهُمْ مُنْحَجِرٌ بِحِجْرِي

ولما تفاقم حال الفقر واستحال داء بداره، وحوّل قربها وألفتها بعدا مُوحشا، اشتكى أبو فرعَوْن السَّاسِي إلى قاضي البصرة علّه يخلّصه من أبي عَمْرة، هذا الذي رُمِز به للجوع ولكلّ شؤم وشرّ، بعد أن انحجر في بيته وتمترس به، أو ربَّما لحَجْره به صار حَجَرًا صُلبا مثله. يقول [من الرّجز][256]:

عَفَا زَمَانٌ وَشِتَاءٌ قَدْ حَضَرْ ... وَإِنَّ أَبَا عَمْرَةَ فِي بيتِي انْحَجَرْ

ولعلّ نصوصا أخرى مهمّة تجعلنا نؤكّد على عمق هذا المعنى الشّعريّ، الذي يسِم شعر المقلّين. فهذا الشّاعر عمَّار ذُو كِنار[257] يصوّر أمكنة القرب وقد بعدت، بعد أن أقفر بيته قواء وخلا خُلوّا من الأثاث وبسيط الطّعام، أو هكذا قال [من الخفيف][258]:

بمهجوّيه ساخرا منهم، وهو ما جعل بشّارا يعطيه في كلّ سنة مائتي درهم جزية يدفعها له ثمن سكوته عن هجائه. كما اتّصل بأبي دلامة وبأبي نواس وسلّم الخاسر ومروان بن حفصة.

(248) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 3، ص 41.

(249) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 3، ص 41.

(250) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 3، ص 52.

(251) غضارةُ الشّيء: نُعُومته وأثر النِّعمَة فيه. راجع في ذلك: معجم الدّوحة التّاريخيّ. مادّة (غ.ض.ر).

(252) بورديو، بيير، بؤس العالم، ج 1، ص 253.

(253) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 3، ص 80.

(254) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 3، ص 81.

(255) ابن المعتزّ. طبقات الشّعراء، تحقيق: فرّاج عبد الستّار أحمد، طبعة 3، دار المعارف، القاهرة، 1976. ص 376.

(256) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 3، ص 82.

(257) عمَّار ذُو كِنَار، شاعر كوفيّ، توفّي في أواسط المائة الثّانية. كان يقول شعرا ظريفا، يُضحك من أكثره.

(258) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 3، ص 311.

وَتَـرَى البَيْـتَ مُقْـشَـعِرًّا قَـوَاءً[259] مِنْ نَوَاحِيـهِ دَوْرَقٌ[260] وَأَصِيـصُ[261]

وَبِجَـادٌ [262]مُمَـزَّقٌ وَخِـــوَانٌ نَـدَرَتْ رِجْـلُهُ وَأُخْـرَى رَهِيـصُ[263]

وَلَقَـدْ كَـانَ ذَا قَـوَائِـمَ مُلْـسٍ يُؤْكَـلُ اللَّـحْمُ فَوْقَهُ والخَبِيـصُ[264]

وقريبا من هذا الرّسم وتتمّة له ما وُصف به بيتُ الشّاعر ابن عَبْدَل[265] وقد تحوّل مرتعا للحشرات، بعد أنْ دُمِّرت أركانه كأنّها دُكّت بالمنجنيق دكّا وصوّبت حممها المستعرة اللاّهبة إليه. لقد ركن الشّاعر ههنا إلى ضرب من المحاكاة السّاخرة، ما إنْ حوّل صورة الحرب وحمم المنجنيق من مجال الوغَى والجدّ إلى مجال اللّهو واللّعب، جاعلا من الحشرات التي غَزت بيته صورا مسوخا من جنود غزت أرضا ففتكت بها وبأهلها. يقول في هذا اللّون من التّصوير المحاكِي [من الخفيف][266]:

نَصَبُوا مَنْجَنِيقَـهُمْ حَـوْلَ بَيْتِـي يَا لَقَـوْمِي لِبَيْـتِيَ المهْـدُومْ

إنْ تُـلاَقِ سِنِّـوْرَتَـاهُ فَضَـاءً تَـذَرَانَـا وَجَمْعُنَا كَالهَزِيمْ[267]

هكذا يتأتّى لنا القول إنّ أفضية القرب لا تتقابل مع أفضية البعد وحسب، وإنّما تتداخلان، حين يعمد الشّـــعراء المقلّون إلى اللّعب بالمعاني، وتبديل المواضع، على نحو كاشف عن هامشيّتهم، ووضعهم البائس.

الخاتمة:

وإذا ما بلغنا من عملنا هذا المدَى، صـــار لزاما أنْ نقرّر على وجه الإجمال بأنّ الفضاء قد تحوّل ثيمة مخصوصة، حضرت بقوّة في الفلسفة والأدب وعلم الاجتماع وعلم النّفس، وأنْ نؤكّد على أنّ جذوره منغرسة في ذاكرة الإنســان، على نحو ما تجلوه الملاحِم والأســاطير، التي جعلت من المكان فضاء أمثل للمبادلات وللصّراع والمقاومة من أجل السّلطة رمزيّة كانت أو حقيقيّة. وأنْ نُعيد القول بأنّ حضـــوره في الأدب، بارز له «أهميّة أولى في فهم الشّعر الجاهليّ»[268]. إنّ الفضاء هو علامة القصيدة العربيّة القديمة المميّزة يكشف عن علاقات الدّاخل بالجوار الخارجيّ، ويُلقي ضوءا على خطاب العربيّ القديم الجمعيّ والجماعيّ.

وقد تبدّى لنا أيضا من خلال عملنا أنّ تناول المكان بالدّرس في الشّعر العربيّ القديم، لا يزال مبحثا راهنيّا يكشف عن ثراء الموضوع وانفتاحه على مسألة الأفضية بكلّ أبعادها الرمزيّة وحمولاتها الفكريّة. وبان واضحا من النّصوص الشّعريّة التي أجلنا فيها النّظر، أنّ الأماكن والأفضية متعدّدة، فمنها «أماكن جاذبة تُساعد على الاستقرار، ومنها أماكن طاردة تلفظنا»[269]، ومنها أفضية أخرى مرفوضة أو مرغوب فيها، ومنها ما كان ضيّقا أو متّسعا رحبا، أو منفتحا أو منغلِقا. وعلى هذا القدر حضور معجم المكان بكثافة من خلال تعدّد معانيه الثّواني، التي أخذت تنسل عنها أفضية أخرى لم يشملها درسنا، كالأفضية الفاجعة والقذرة، وأفضية البناء والهدم، والخراب والعمران وأفضية المقدّس والمدنّس، والحبّ والكراهيّة، والعفّة والعُهر، وأفضية المتاهة والعُتمة والألفة والوحشة والجمال والقبح لا في الشّعر العربيّ القديم أو الحديث وحدهما، ولكنْ أيضا في أضرب من الفنون وسائر الخطابات. وغدا من المهمّ القول في الختام أنّ الأفضية المنغلقة تكون «مرفوضة لأنّها صعبة الوُلوج، وقد تكون مطلوبة لأنّها تمثّل الملجأ والحماية التي يأوي إليها الإنسان بعيدا عن صخب الحياة، وتكون صورة للرّحِم»[270].

هكذا كشفت النّصوص الشعريّة التي تأمّلناها عن أمكنة أخرى عديدة انتظمت وفق ثنائيّة العلوّ والرّفعة والخفض والوضاعة والقرب والبعد والاتّساع والضّيق، والدّاخل والخارج معبّرة أصدق تعبير عن تعارض صارخ بين الأنا والآخر، وعن تجربة العربيّ وتغريبته الوجوديّة.

الدعم المالي (نماذج الإقرار بمنح الوزارة في الأبحاث)

النسخة العربية:

"تم انجاز هذا البحث بدعم من برنامج منحة " الشعر العربي " التي أطلقتها وزارة الثقافة في المملكة العربية السعودية، وجميع الآراء الواردة تخص الباحثين، ولا تعبر بالضرورة عن الوزارة "

النسخة الإنجليزية

"This research was funded by the "Arabic Poetry Grant" program offered by the Saudi Ministry of Culture. All opinions expressed herein belong to the researchers and do not necessarily reflect those of the Ministry of Culture".

(259) القَوَاءُ من الأماكن: القَفْرُ الذي لا أهل فيه. والقواءُ من الأراضِي: الخالية من المطر. راجع: معجم الدّوحة التّاريخيّ. مادّة (ق.و.ء).

(260) الدَّوْرَقُ: إناءٌ يُكال به الشَّرابُ. راجع في ذلك: نفسه. مادّة (د.ر.ق).

(261) الأَصِيصُ: أسفل الدَّنِّ الذي يجتمع فيه الشّراب ونحوه. راجع في ذلك: نفسه. مادّة (ء.ص.ص).

(262) البِجَادُ: الكساءُ المخطّط. راجع في ذلك: نفسه. مادّة (ب.ج.د).

(263) الرَّهِيصُ: المصاب في باطن القَدَمِ ونحوها بشيء يُوهِنها. راجع في ذلك: نفسه. مادّة (ر.ه.ص).

(264) الخبيصُ: حلواء من خليط التّمر والسّمَن ونحوهما. والخبيصُ من الأشياء: المختلط بعضه ببعض. راجع في ذلك: نفسه. مادّة (خ.ب.ص).

(265) الحكم بن عَبْدَل: من شعراء القرن الأوّل. كان شاعرًا مُجيدا للقصيد وللرّجز. بَرع في كتابة المقطّعات. وأكثر شعره في الهجاء.

(266) النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، ج 3، ص 92.

(267) الهزيم: المغلوب المقهور. والهزيم من الأشياء: المتكسّرُ المتصدّعُ. راجع في ذلك: معجم الدّوحة التّاريخيّ. مادّة (هـ.ز.م).

(268) أدونيس، ديوان الشّعر العربيّ، ج 1، ص 23.

(269) يوري، لوتمان، سيمياء الكون، ص 63.

(270) يوري، لوتمان، سيمياء الكون، ص 63.

الإفصاح والتصريحات

تضارب المصالح: ليس لدى المؤلف أي مصالح مالية أو غير مالية ذات صلة للكشف عنها المؤلفون يعلنون عن عدم وجود أي تضارب في المصالح.

الوصول المفتوح: هذه المقالة مرخصة بموجب ترخيص إسناد الإبداع التشاركي غير تجاري 0.4 الدولي (NC BY-CC 0.4) ، الذي يسمح بالاستخدام والمشاركة والتعديل والتوزيع وإعادة الإنتاج بأي وسيلة أو تنسيق، طالما أنك تمنح الاعتماد المناسب للمؤلف (المؤلفين) الأصليين. والمصدر، قم بتوفير رابط لترخيص المشاع الإبداعي، ووضح ما إذا تم إجراء تغييرات. يتم تضمين الصور أو المواد الأخرى التابعة لجهات خارجية في هذه المقالة في ترخيص المشاع الإبداعي الخاص بالمقالة، إلا إذا تمت الإشارة إلى خلاف ذلك في جزء المواد. إذا لم يتم تضمين المادة في ترخيص المشاع الإبداعي الخاص بالمقال وكان الاستخدام المقصود غير مسموح به بموجب اللوائح القانونية أو يتجاوز الاستخدام المسموح به، فسوف تحتاج إلى الحصول على إذن مباشر من صاحب حقوق الطبع والنشر. لعرض نسخة من هذا الترخيص، قم بزيارة:

https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0

المصادر والمراجع

ابن أبي سُلْمَى، زُهيْر. شعر زُهيْر بن أبي سُلْمَى، صنعه: الشَّنْتَمَّري الأعلم، تحقيق: قباوة فخر الدّين، طبعة 3، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1980.

ابن الخشرم، هدبة، شعر هُدبة الخَشِرم العذريّ، تحقيق: الجبوري يحي، طبعة 2، دار القلم، الكويت، 1986.

ابن العبد، طرفة، ديوان طرفة بن العبد، شرحه وقدّم له: ناصر الدّين مهدي محمّد، طبعة 3، دار الكتب العلميّة، بيروت، 2002.

ابن رشيق، العمدة، في محاسن الشّعر وآدابه. تحقيق: قرقزان محمّد، طبعة 1، دار المعرفة، بيروت، 1988.

ابن منظور، لسان العرب، نسّقه وعلّق عليه ووضع فهارسه: شيري علي، طبعة1، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، 1988.

ابن وهب الكاتب، أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان، البرهان في وجوه البيان، تحقيق: مطلوب أحمد، والحديثيّ خديجة، طبعة 1، جامعة بغداد، بغداد، 1967.

ادونيس، ديوان الشّعر العربيّ، طبعة، 1، دار السّاقي، بيروت، لندن، 2010

ارسطو، الفيزياء: السّماع الطّبيعيّ، ترجمة: قنيني عبد القادر، طبعة 1، أفريقيا الشّرق، الدّار البيضاء، 1998.

امرئ القيس، ديوان امرئ القيس، اعتنى به وشرحه: المصطاويّ عبد الرّحمان، طبعة 2، دار المعرفة، بيروت، 2004.

اوثوايت، وليم، قاموس بلاكويل للفكر الاجتماعيّ الحديث، ترجمة: معهد دراسات عراقيّة، إشراف: عبد الجبّار فالح، طبعة 1، هيئة البحرين للثّقافة والآثار، المنامة، 2022.

البغداديّ، ابن ميمون، منتهى الطّالب من أشعار العرب: جمع: ابن ميمون البغداديّ، تحقيق وشرح: طريفي محمّد نبيل، طبعة 1، دار صادر، بيروت، 1999.

الجيار ، مدحت، جماليّات المكان في مسرح صلاح عبد الصبّور، مجلّة عيون المقالات، الدّار البيضاء، العدد 8، أفريل 1987.

الرِّمَانِي، الفِنْد، شعر الفِنْد الرِّمَانِي، جمع وتحقيق: الضّامن حاتم صالح، مجلّة المجمع العلميّ العراقيّ، بغداد، المجلّد 37، العدد 4، كانون الأوّل 1986.

الشّربينيّ، لطفي، عادل، صادق، معجم مصطلحات الطبّ النّفسيّ، طبعة 1، مؤسّسة الكويت للتقدّم العلميّ، الكويت، 2003.

الصّويان، سعد العبد الله، الصّحراء العربيّة ثقافتها وشعرها عبر العصور: قراءة أنتروبولوجيّة، طبعة 1، الشّبكة العربيّة للأبحاث والنّشر، بيروت، لندن، 2010.

العبيديّ، حسن مجيد، نظريّة المكان في فلسفة ابن سينا، مراجعة وتقديم: الأعسم عبد الأمير، طبعة 1، دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة، بغداد، 1987.

الفرزدق، ديوان الفرزدق، شرحه وضبطه وقدّم له: فاعور علي، طبعة 1، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1987.

الفريحات، عادل، الشّعراء الجاهليّون الأوائل، طبعة 2، دار المشرق، بيروت، 2008.

النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، طبعة، 1، در الغرب الإسلاميّ، بيروت، 1997.

النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون: بين الجدّ والهزل، القسم الثّاني، الجزء الأوّل: ثقافة البادية ومسالكها لدى ثلّة من شعراء المائة الثّانية، طبعة 1، در الغرب الإسلاميّ، بيروت، 1997.

النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون، القسم الثّاني، الجزء الثّاني: مسالك الغزل، طبعة 1، در الغرب الإسلاميّ، بيروت، 1997.

النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون: بين الجدّ والهزل، القسم الثّاني، الجزء الثّالث: بين الجدّ والهزل. طبعة 1، در الغرب الإسلاميّ، بيروت، 1997.

النجّار، إبراهيم، مجمع الذّاكرة أو شعراء عبّاسيّون منسيّون: مسالك الرّثاء والتفجّع، القسم الثّاني، الجزء الرّابع، طبعة 1، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، 1997.

باشلار، غاستون، جماليّات المكان. ترجمة: هلسا غالب، طبعة، 2، المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، 1984.

بورديو، بيير، بؤس العالم: رغبة الإصلاح، ترجمة: صبح محمّد، مراجعة وتقديم: درّاج فيصل، طبعة 1، دار كنعان للدّراسات والنّشر والخدمات الإعلاميّة، دمشق، 2010.

حسن، حسين الحاج، حضارة العرب في عصر الجاهليّة، طبعة 1، المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، 1989.

عناية، مصطفى حسين، نصر بن أحمد البصريّ الخَبْزأرزيّ: حياته وشعره، طبعة 1، عالم الكتب الحديث، إربد، 2015.

فاجر، إيفالد، أسس الشّعر العربيّ الكلاسيكيّ والشّعر العربيّ القديم، ترجمة وتعليق: بحيري سعيد حسن، طبعة 1، مؤسّسة المختار للنّشر والتّوزيع، القاهرة، 2008.

فرّوخ، عمر، تاريخ الأدب العربيّ: الأعصر العباسيَّة، طبعة 4، دار العلم للملايين، بيروت، 1981.

كنط، عمانوئيل، نقد العقل المحض، ترجمة: وهبة موسى، طبعة 1، مركز الإنماء القوميّ، بيروت، 2013.

لوثمان، يوري، سيميياء الكون، ترجمة: نوسي عبد المجيد، طبعة 1، المركز الثّقافيّ العربيّ، الدّار البيضاء، بيروت، 2011.

نجمي، حسن، شعريّة الفضاء: المتخيّل والهويّة في الرّواية العربيّة، طبعة 1، المركز الثّقافيّ العربيّ، الدّار البيضاء، بيروت، 2000.

هوسرل، إدموند، فكرة الفينومينولوجيا، ترجمة: إنقزو فتحي، طبعة 1، المنظّمة العربيّة للتّرجمة، بيروت، 2007.

هيدغر، مارتن، الكينونة والزّمان، ترجمة وتقديم وتعليق: المسكيني فتحي، مراجعة: المصدّق إسماعيل، طبعة 1، دار الكتاب الجديد المتّحدة، بيروت، 2012.

References

Adūnīs. Dīwān alshsh‘r al‘rbī, Ṭab‘ah, 1, Dār alssāqy, Bayrūt, Landan, 2010

Albghdādī, Ibn Maymūn. Muntahá alṭṭālb min ash‘ār al-‘Arab : jam‘ : Ibn Maymūn albghdādī, taḥqīq wa-sharḥ : Ṭarīfī Muḥammad Nabīl, Ṭab‘ah 1, Dār Ṣādir, Bayrūt, 1999.

Al‘bydī, Ḥasan Majīd. nẓryyh al-makān fī Falsafat Ibn Sīnā. murāja‘at wa-taqdīm : al-A‘sam ‘Abd al-Amīr, Ṭab‘ah 1, Dār alshsh’wn alththqāfyyh al‘āmmh, Baghdād, 1987.

Al-Farazdaq. Dīwān al-Farazdaq. sharaḥahu wa-ḍabaṭahu wqddm la-hu : Fā‘ūr ‘Alī, Ṭab‘ah 1, Dār al-Kutub al‘lmyyh, Bayrūt, 1987.

Alfryḥāt, ‘Ādil. alshsh‘rā’ aljāhlyywn al-Awā’il. Ṭab‘ah 2, Dār al-Mashriq, Bayrūt, 2008.

Al-Jayyār Midḥat. « jmālyyāt al-makān fī masraḥ Ṣalāḥ ‘Abd alṣbbwr ». mjllh ‘Uyūn al-maqālāt, (alddār al-Bayḍā’), al-‘adad 8, Afrīl 1987.

Al-Najjār, Ibrāhīm. Majma‘ aldhdhākrh aw shu‘arā’ ‘bbāsyywn mnsyywn. Ṭab‘ah, 1, Durr al-Gharb al’slāmī, Bayrūt, 1997.

Al-Najjār, Ibrāhīm. Majma‘ aldhdhākrh aw shu‘arā’ ‘bbāsyywn mnsyywn : bayna al-Jadd wa-al-hazl, al-qism alththāny, al-juz’ al-awwal : Thaqāfat al-bādiyah wmsālkhā ladá thllh min shu‘arā’ al-mi’ah alththānyh. Ṭab‘ah 1, Durr al-Gharb al’slāmī, Bayrūt, 1997.

Al-Najjār, Ibrāhīm. Majma‘ aldhdhākrh aw shu‘arā’ ‘bbāsyywn mnsyywn, al-qism alththāny, al-juz’ alththāny : Masālik al-ghazal, Ṭab‘ah 1, Durr al-Gharb al’slāmī, Bayrūt, 1997.

Al-Najjār, Ibrāhīm. Majma‘ aldhdhākrh aw shu‘arā’ ‘bbāsyywn mnsyywn : bayna al-Jadd wa-al-hazl, al-qism alththāny, al-juz’ alththālth : bayna al-Jadd wa-al-hazl. Ṭab‘ah 1, Durr al-Gharb al’slāmī, Bayrūt, 1997.

Al-Najjār, Ibrāhīm. Majma‘ aldhdhākrh aw shu‘arā’ ‘bbāsyywn mnsyywn : Masālik alrrthā’ wāltfjj‘. al-qism alththāny, al-juz’ alrrāb‘, Ṭab‘ah 1, Dār al-Gharb al’slāmī, Bayrūt, 1997.

Alshshrbynī, Luṭfī. ‘Ādil, Ṣādiq. Mu‘jam muṣṭalaḥāt alṭbb alnnfsī. Ṭab‘ah 1, Mu’assasat al-Kuwayt lltqddm al‘lmī, al-Kuwayt, 2003.

Alṣṣwyān, Sa‘d al-‘Abd Allāh. alṣṣḥrā’ al-‘Arabīyah thqāfthā wa-shi‘ruhā ‘abra al-‘uṣūr : qirā’ah antrwbwlwjyyh. Ṭab‘ah 1, alshshbkh al-‘Arabīyah lil-Abḥāth wālnnshr, Bayrūt, Landan, 2010.

Alzzimānī, alfind. « shi‘r alfind alzzimānī », jam‘ wa-taḥqīq : alḍḍāmn Ḥātim Ṣāliḥ, mjllh al-Majma‘ al‘lmī al‘rāqī, (Baghdād), almjlld 37, al-‘adad 4, Kānūn al-awwal 1986.

Aristū. al-fīziyā’ : alssmā‘ alṭṭby‘ī, tarjamat : qnyny ‘Abd al-Qādir, Ṭab‘ah 1, Afrīqiyā alshshrq, alddār al-Bayḍā’, 1998.

Ibn al-Khashram, hdbh. shi‘r hudbh alkhashirm al‘dhrī. taḥqīq : al-Jubūrī Yaḥyá, Ṭab‘ah 2, Dār al-Qalam, al-Kuwayt, 1986.

Ibn manẓūr. Lisān al-‘Arab. nssqh w‘llq ‘alayhi wa-waḍa‘a fahārisahu : shyry ‘Alī, Ṭab‘ah 1, Dār Iḥyā’ alttrāth al‘rbī, Bayrūt, 1988.

Ibn Rashīq. al-‘Umdah fī Maḥāsin alshsh‘r wa-ādābuh. taḥqīq : Qarqazān Muḥammad, Ṭab‘ah 1, Dār al-Ma‘rifah, Bayrūt, 1988.

Ibn Wahb al-Kātib, Abū al-Ḥusayn Isḥāq ibn Ibrāhīm ibn Sulaymān. al-burhān fī Wujūh al-Bayān. taḥqīq : Maṭlūb Aḥmad, wālḥdythī Khadījah, Ṭab‘ah 1, Jāmi‘at Baghdād, Baghdād, 1967.

Imri’ al-Qays. Dīwān Imri’ al-Qays. i‘taná bi-hi wa-sharaḥahu : almṣṭāwī ‘Abd alrrḥmān, Ṭab‘ah 2, Dār al-Ma‘rifah, Bayrūt, 2004.

Ināyat, Muṣṭafá Ḥusayn. Naṣr ibn Aḥmad albṣrī alkhabz’rzī : ḥayātuhu wa-shi‘ruh. Ṭab‘ah 1, ‘Ālam al-Kutub al-ḥadīth, Irbid, 2015.

Knṭ, ‘Amānū’īl. Naqd al-‘aql al-maḥḍ. tarjamat : Wahbah Mūsá, Ṭab‘ah 1, Markaz al-Inmā’ alqwmī, Bayrūt, 2013.

Lefebvre, Henri. La production de l’espace. Ed Antropos, Paris,1986.

Lwtmān, ywry. Sīmiyā’ al-kawn. tarjamat : Nūsī ‘Abd al-Majīd, Ṭab‘ah 1, al-Markaz alththqāfī al‘rbī, alddār al-Bayḍā’, Bayrūt, 2011.

Matoré, Georges. L’espace Humain. Ed La Colombe, Paris, 1962.

Najmī, Ḥasan. sh‘ryyh al-faḍā’ : almtkhyyl wa-al-hawīyah fī alrrwāyh al-‘Arabīyah. Ṭab‘ah 1, al-Markaz alththqāfī al‘rbī, alddār al-Bayḍā’, Bayrūt, 2000.

Remy, Jean. «Espace et théorie sociologique». Recherches Sociologiques, Vol VI, N°55, Novembre 1975.

Awthwāyt, Wilyam. Qāmūs bi-lā kwyl lil-Fikr alājtmā‘ī al-ḥadīth. tarjamat : Ma‘had Dirāsāt ‘rāqyyh, ishrāf : ‘Abd aljbbār Fāliḥ, Ṭab‘ah 1, Hay’at al-Baḥrayn llththqāfh wa-al-āthār, al-Manāmah, 2022.

Bachelard, Gaston. La poétique de l’espace. Presses Universitaires de France, Paris, 1961.

Bāshilār, Ghāstūn. jmālyyāt al-makān. tarjamat : Halasā Ghālib, Ṭab‘ah, 2, alm’sssh aljām‘yyh llddrāsāt wālnnshr, Bayrūt, 1984.

Bwrdyw, Pierre. Bu’s al-‘ālam : Raghbah al-iṣlāḥ. tarjamat : Ṣubḥ Muḥammad, murāja‘at wa-taqdīm : drrāj Fayṣal, Ṭab‘ah 1, Dār Kan‘ān llddrāsāt wālnnshr wa-al-Khidmāt al’‘lāmyyh, Dimashq, 2010.

Callot, Y and, R. Vernet and, J. Bisson. «al-Ṣaḥrāʾ», In Encyclopédie de l’Islam, T 3, Éditions Brill, Leyde, 2010.

Fājr, iyfāld. Usus alshsh‘r al‘rbī alklāsykī wālshsh‘r al‘rbī al-qadīm. tarjamat wa-ta‘līq : Buḥayrī Sa‘īd Ḥasan, Ṭab‘ah 1, Mu’assasat al-Mukhtār llnnshr wālttwzy‘, al-Qāhirah, 2008.

Frrwkh, ‘Umar. Tārīkh al-adab al‘rbī : al-A‘ṣar al‘bāsyaah. Ṭab‘ah 4, Dār al-‘Ilm lil-Malāyīn, Bayrūt, 1981.

Ḥasan, Ḥusayn al-Ḥājj. Ḥaḍārat al-‘Arab fī ‘aṣr aljāhlyyh. Ṭab‘ah 1, alm’sssh aljām‘yyh llddrāsāt wālnnshr, Bayrūt, 1989.

Hīdghar, Mārtin. al-kaynūnah wālzzmān. tarjamat wa-taqdīm wa-ta‘līq : al-Maskīnī Fatḥī, murāja‘at : almṣddq Ismā‘īl, Ṭab‘ah 1, Dār al-Kitāb al-jadīd almtthḍh, Bayrūt, 2012.

Hūsril, Idmūnd. fikrat alfynwmynwlwjyā. tarjamat : inqzw Fatḥī, Ṭab‘ah 1, almnẓẓmh al-‘Arabīyah llttrjmh, Bayrūt, 2007.

Ibn Abī sulmá, zuhyr. shi‘r zuhyr ibn Abī sulmá. ṣana‘ahu : alshshantammary al-A‘lam, taḥqīq : Qabāwah Fakhr alddyn, Ṭab‘ah 3, Manshūrāt Dār al-Āfāq al-Jadīdah, Bayrūt, 1980.

Ibn al-‘Abd, Ṭarafah. Dīwān Ṭarafah ibn al-‘Abd. sharaḥahu wqddm la-hu : Nāṣir alddyn Mahdī Muḥammad, Ṭab‘ah 3, Dār al-Kutub al‘lmyyh, Bayrūt, 2002.